

ابو نواس (بريشة الرسام رأفت السحرتي)

ابونواس

سطور من صفحات حياته

* الحسن بن هانيء « ابو نواس » . ولد بالاهواز فى أوائل العقد الخامس من القرن الثانى للهجرة
* والده دمشقى الوطن . ارتحل الى الاهواز فى جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية
* انتقل والده الى البصرة فى السنة الثانية من عمره ، فنشأ بها
* قرأ القرآن على يعقوب الحضرمى حتى حذقه
* مات والده وهو صغير ، فاسلمته امه الى « براء » يبرى عود البخور
* كان نحيف الجسم ، عظيم الرأس ، حسن الوجه ، أبيض البشرة ، رقيق اللون
* كان الثغ بالراء يقلبها غيناً . وصوته فيه بحة لا تفارقه
* مال فى صغره الى الشعر ، فكان يختلف الى مجالس العلم والادب بالبصرة فاستفاد منها
* هاجر الى الكوفة ثم الى بغداد ، فأخذ عن علمائهما وأدبائهما
* حفظ كثيراً من اشعار العرب ، واتقن علم اللغة ، واقام بالبادية سنة
* نظر فى علم النجوم والطبيعيات ، وكان متكلما ، راوية ، خلا ، رقيق الطبع ، ثابت الفهم
* كان دعياً يخلط فى نسبه بين عرب البصرة وعرب اليمن وغيرهم . وانتسب مرة للفرزدق
* كان يكنى بأبى فراس ، ثم كنى نفسه بأبى نواس انتساباً الى اذواء اليمن
* تقرب من بعض الخلفاء ومدحهم ، ومدح بعض الامراء
* رحل الى مصر ، ومدح الخصيب بن عبد الحميد اميرها على الخراج
* زهد فى ختام حياته ، ويقال أنه تاب عن مجونه
* توفى فى العقد العاشر من المائة الثانية للهجرة ، وله من العمر ٥٩ سنة

آراءُ القُدَمَاءِ فى شِعرِ أبى نواس

* من طلب الادب ، فلم يرو شعر ابى نواس ، فليس بتام الادب

(عبد الله بن عائشة)

* اذا رأيت الرجل يحفظ شعر ابى نواس. علمت ان ذلك عنوان ادبه ، ورائد ظرفه

(ابراهيم بن العباس)

* ابو نواس ، ومسلم بن الوليد ، اللات والعزى ، وانا اعبدهما

(ابو تمام)

* ذهبت اليمن بجيد الشعر فى قديمه وحديثه : امرؤ القيس فى الأوائل . وابو نواس فى المحدثين

(ابو عبيدة معمر بن المثنى)

* ما رأيت احداً اعلم باللغة من ابى نواس . ولا افصح منه لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه

(الجاحظ)

* قيل للعتبى : « من اشعر الناس ؟ »

فقال : « اعند الناس ام عندى ؟ »

قيل : « عند الناس ! »

قال : « امرؤ القيس »

قيل : « فعندك ؟ »

قال : « ابو نواس » . . .

* كان أقل ما فى أبى نواس قول الشعر . وكان فحلا راوية عالما

(احد الرواة)

* اشعر الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الاعشى ، والاخطل ، وابو نواس

(ابو عمر الشيبانى)

* كانت المعانى مدفونة حتى اثارها أبو نواس

(ابو حاتم)

* كأن هذا الفتى (يعنى ابا نواس) جمع له الكلام ، فاختار منه احسنه

(النظام)

* ما زالت المعانى مكنوزة فى الارض حتى جاء ابو نواس فاستخرجها

(المكي)

* لم يكن شاعر فى عصر ابى نواس إلا وهو يحسده ، لميل الناس اليه ، وشهوتهم لمعاشرته ، وبعد صيته ، وظرف لسانه

(محمد بن عمر)

وثبات عبقرية
فى زهد أبى نواس

بقلم الأستاذ مصطفى عبد الرازق

لأبي نواس شعر في الزهد ، وللزهد فى ديوان أبى نواس – المطبوع بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م – بابٌ من أحد عشر باباً هى جملة الديوان

وباب الزهد فى ديوان أبى نواس ، ليس من اكبر الابواب ولا من أجودها شعراً ، لكنه على ذلك لا يخلو من وثبات عبقرية ، لذلك الشاعر العبقري

وفى كتاب « أخبار أبي نواس » لابن منظور المصرى :

« كان أبو العتاهية يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات، وددت اني سبقته اليها بكل ماقلته ، فانه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك اكبر

وقوله : من لم يكن لله متهماً لم يمس محتاجاً الى أحد

وقوله :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ثم قال : « قلت فى الزهد ستة عشر الف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الابيات » . . . والبيت الاخير لابى نواس من قصيدة له ، أولها :

ألا رب وجه في التراب عتيق ويارب حسن في التراب رقيق

ويارب حزم في التراب ونجدة ويارب رأى في التراب وثيق

فقل لقريب الدار انك راحل الى منزل نائي المحل سحيق

وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وكان المأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

ومن وثبات ابى نواس في الزهد قوله :

إنّ مع اليوم فاعلمن غداً   فانظر بماينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرىء بلذته   الا وشيء يموت من جسده

ومنها :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس   وان تمنعت بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نافذة   في جنب مدرع منها ومترس
أراك ليس بوقاف ولا حذر   كالحاطب الخابط الشجراء في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

ومنها : طوتك خطوب دهرك بعد نشر   كذاك خطوبه نشراً وطيا
وكانت فى حياتك لى عظات   وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وشعر أبى نواس في الزهد يدور حول ذكر الموت وما بعد الموت من حساب وعقاب :

يامن أقام على خطيئته   سدت عليك مذاهب الرشد
منتك نفسك أن تتوب غداً   أو ما تخاف الموت دون غد
الموت ضيف فاستعد له   قبل النزول بافضل العدد
واعمل لدار أنت جاعلها   دار المقامة آخر الامد
يانفس موردك الصراط غداً   فتأهبى من قبل أن تردى
ما حجتى يوم الحساب اذا   شهدت علىّ بما جنيت يدى

ويدور حول التذكير بقضاء الله وقدره واطلاعه على ما ظهر من أمر الناس وما استتر والحث على التوجه اليه وحده والطمع في عفوه مع الخوف من عقابه :

يا سائل الله فزت بالظفر   وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب الى الله لا الى بشر   منتقل في البلى وفي الغير
وارغب الى الله لا الى جسد   منتقل من صبا الى كبر
إنّ الذى لا يخيب سائله   جوهره غير جوهر البشر
مالك بالترهات مشتغلاً   أفي يديك الامان من سقر

***

يا كبير الذنب عفو الـ ـه من ذنبك اكبر
اكبر الاشياء عن أصغر عفو الله أصغر
ليس للانسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبـــير بل الله المدبر

***

كل مستخف بسر فمن الله بمرأى
لا أرى شيئاً على الا ه من الاشياء يخفى

***

اذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا بعمر طال حتى ترادفت ذنوب على آثارهن ذنوب

ومن المعانى التى تدور في شعر أبى نواس في الزهد ، الندم على ما كان منه من سرف وعلى ما فرط فى جنب الله . فمن قصيدته التى مطلعها :

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان على مأثور القبيح

قوله :

ألم ترنى أبحت اللهو عينى وعض مراشف الظبي المليح
وأيقن رائدي أن سوف تنأى مسافة بين جسمانى وروحي

***

ما حجتى فيما أتيت وما قولى لربي بل وما عذرى
ألا اكون قصدت رشدى أو أقبلت ما استدبرت من أمرى
يا سوأتا مما اكتسبت ويا أسفى على ما فات من عمرى

***

فانى قد شبعت من المعاصي ومن ادمانها وشبعن منى
ومن أسوا وأقبح من لبيب يرى متطرباً فى مثل سنى

هذا هو شعر أبى نواس في الزهد وهو لا يخلو من نفحات ابداع على قلته وكثرة ما فيه من المعاني المطروقة . وقد شهد لابي نواس بالاجادة فيباب الزهد كبير شعراء الزهد أبو العتاهية

كما أسلفنا، وشهد الجاحظ لابي نواس في بعض قصائده في الزهد . قال ميمون بن هارون : قال لي ابراهيم بن المنذر قال الجاحظ : لا أعرف من كلام الشعر كلاماً هو أوقع ولا أحسن من كلام أبي نواس :

أية نار قدح القادح ... وأى جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ ... وناصح لوحذر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
لا يجتلى العذراء من خدرها ... إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذي ... سيق اليه المتجر الرابح
فاغد فما في الدين اغلوطة ... ورح بما أنت له رائح

أما بعد فهل كان أبو نواس صاحب هذه الزهديات زاهداً ؟

يرى بعض من ترجموا لهذا الشاعر الكبير أنه في شيخوخته انصرف عن لذات هذا العالم ووجه فنه الشعرى وجهة الزهد ، بعد أن كان متجها الى الخمر والغزل والمجون والى المدح والهجاء . ولا يعدم أصحاب هذا الرأي شواهد تؤيد رأيهم في بعض ما يروى المؤرخون من أخبار أبي نواس في آخر حياته وفي بعض ما روى من أشعاره . فمن شعره قوله :

انقضت شرتى فعفت الملاهى ... إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهي
ونهتنى النهى فملت الى العذ ... ل واشفقت من مقالة ناه
أيها الغافل المقيم على اللهـ ... و ولا عذر في المعاد لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصاً ... يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنا على الاساءة والتفـ ... ريط نرجو لحسن عفو الاله

وفي ترجمة أبي نواس في كتاب تاريخ بغداد :

« . . . . قال حدثنا الربيع بن سليمان قال سمعت الشافعي يقول : دخلنا على ابى نواس وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما
[illegible] ... وكيف وقد أغوى صفيك آدما

.... حدثنا على بن محمد بن زكريا قال : دخلت على ابي نواس وهو يكيد بنفسه فقال : تكتب ؟ قلت : نعم . فأنشأ يقول :

دب فى الفناء سفلا وعلواً | وأراني أموت عضواً فعضواً
ذهبت شرتي بجدة نفسي | وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بى الا | نقصتنى بمرها بي جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا | م سلكتهن لعبا ولهوا
وأسأنا كل الاساءة يار | ب فصفحاً عنا إلهى وعفوا

.... (جـ ٧ ص ٤٤٧ — ٤٤٨)

وروى البغدادى ايضاً عن محمد بن نافع قال :

« كان ابو نواس لى صديقاً فوقعت بيني وبينه هجرة فى آخر عمره ثم بلغني وفاته فتضاعف علىَّ الحزن، فبينا أنا بين النائم واليقظان اذا أنا به فقلت : أبانواس قال: لات حين كنية قلت : الحسن بن هانىء ؟ قال : نعم . قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بابيات قلتها هى تحت ثنى الوسادة . . فاتيت أهله فلما أحسوا بي أجهشوا بالبكاء فقلت لهم : هل قال أخي شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم الا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندرى ما هو . فقلت : أتأذنون لى فأدخل ؟ قال فدخلت الى مرقده فاذا ثيابه لم تحرك بعد فرفعت وسادة فلم أر شيئا فرفعت أخرى فاذا برقعة فيها مكتوب :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة | فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن | فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً | فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى اليك وسيلة إلا الرجا | وجميل عفوك ثم أني مسلم

.... » (جـ ٧ ص ٤٤٩)

وقد يكون لاصحاب هذا الرأى في زهد أبى نواس وجه فان الحسن بن هانىء على مايروى المؤرخون كانت نشأته الاولى على أساس دينى ، فقد نشأ بالبصرة وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمى ، فلما حذق القرآن رمى اليه يعقوب بخاتمه وقال له : « اذهب فانت أقرأ أهل البصرة » وذلك كما في كتاب أخبار أبى نواس لابن منظور . ويقول البغدادى :

« ونشأ بالبصرة واختلف فى طلب الحديث فسمع من حماد بن زيد وعبد الواحد بن

زياد ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان وأزهر بن سعد السمان »

وأبو نواس معدود في رجال الحديث وان كان رأى أهل الجرح والتعديل فيه سيئاً. قال الذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال :

« أبو نواس الشاعر المفلق هو الحسن بن هانيء شعره في الذروة ولكن فسقه ظاهر وتهتكه واضح . فليس بأهل أن يروى عنه ، له رواية عن حماد بن سلمة وغيره توفي سنة نيف وتسعين ومائة » (ج ٣ ص ٣٨٤)

وليس بعجيب أن يكون الحسن بن هانيء قد نزع به نازع ديني من أساس تربيته الاولى بعد أن خفت حدة جماحه بذهاب الشباب

على أن من المترجمين لابي نواس من يروون من أشعاره وأخباره ما يهدم الرأي الاول ويسوغ القول بأن أبا نواس ظل متهتكا ماجناً حتى مات ، وأن معالجته للزهد في شعره انما كانت نوعاً من الافتنان أراد به أن يغلب شعراء الزهد كما غلب الشعراء في سائر الابواب

وفي كتاب أخبار أبي نواس لابن منظور :

« قال ابو مخلد الطائي : جاء ابو العتاهية الى عندي ، فقال لي : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألاَّ يقول في الزهد شيئاً فاني قد تركت له المديح والهجاء ، والخمر ، والرقيق ، وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي . فبعثت الى أبي نواس ، فجاء اليَّ وأخذنا في شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبي نواس : ان ابا اسحاق من قد عرفت في جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : يا أبا مخلد ، قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم ان اقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف ابا اسحاق فيما رغب اليه » (ص ٦٩ — ٧١)

وفي كتاب شذرات الذهب لابن العماد :

« وقال الحصري في كتابه «قطب السرور» قال ابن نوبخت : توفي ابو نواس في منزلي فسمعته يوم مات يترنم بشيء فسألته عنه فأنشدني :

باح لساني بمضمر السر وذاك أني أقول بالدهر

وليس بعد الممات منقلب وإنما الموت بيضة العمر

« والتفت الى من حوله فقال : لاتشربوا الخمر صرفاً فاني شربتها صرفاً فاحرقت كبدي

ثم طفى . انتهى . فانا لله وانا اليه راجعون » (ج ١ ص ٣٤٧)

وفي كتاب تاريخ بغداد عن سليم بن منصور قال :

« رأيت أبا نواس فى مجلس أبي يبكى بكاء شديداً فقلت : إنى لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا البكاء أبداً . فانشأ يقول :

لم أبك فى مجلس منصور شوقاً الى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله . . . ولا من النفخة فى الصور
لكن بكائى لبكا شادن تقيه نفسي كل محذور

« ثم قال : أما ترى الأمرد الذى عن يمين أبيك ؟ إنما بكيت لبكائه »

ويروى المؤرخون من أمثال ذلك كثيراً مما يدل على أن أبا نواس حتى في ساعات إنابته كان لايخلو من نزوات مجون وفي بعض قصائده المروية في باب الزهد مايشعر بأن نظره حين أعجزه المشيب عن التمتع بالجمال الدنيوى كان يتسامى الى التماس متاع وجمال أيضاً :

فاسم بعينيك الى نسوة مهورهن العمل الصالح

وليس من الميسور الترجيح بين الرأيين ، والقطع بأن أبا نواس تزهد في آخر حياته وأناب فكانت زهدياته صورة خالصة لعاطفة خالصة ، أو القطع بأن أبا نواس الذى أعدته الفطرة لينعم بالحياة وتنعم به الحياة ، قضى عمره كله مستغرقاً في دنياه لاهياً عن الآخرة لا يذكرها إلا عابثاً فى بعض أحواله ومنافساً لشعراء الآخرة فى بعض احواله

كان أبو نواس – على مافى كتاب ابن منظور – حسن الوجه رقيق اللون ابيض حلو الشمائل ناعم الجسم ، وكان في رأسه سماحة وتسفيط ، وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً وكان في حلقه بحة لا تفارقه . قال : « ولما شب أسلمته أمه الى براء يبرى عود البخور ، ثم كبر وتأدب وصحب أهل المسجد والمجان واشتهى الكلام فقعد الى أصحابه فتعلم منهم شيئاً من الكلام ثم دعاه ذلك الى الزندقة ثم مجن في شعره »

ومن كانت هذه صفته وصورة حياته فالشاك في أمر زهده في متاع الحياة معذور

واذا كان الشك فى زهد أبى نواس وفي إقلاعه عن عبثه ومجونه قد جعل صاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال يهدر قيمة الرجل بين الرواة ، فان للفن والنقد الفني ميزاناً غير ذلك الميزان ولم يفت الذهبي ذلك إذ قال إن شعره في الذروة . فزهد أبى نواس موضع للريب أما عظمته الشعرية فهي فوق الارتياب

مصطفى عبد الرازق

نفس ابن هانئ

بين عمر الخيام وأبي نواس

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

نفس أبي نواس نفس خليع مطبوع

والفرق بين الخليع المطبوع وغير المطبوع أن الاول قد يخترع المجانة والتهتك إن خلق في بيئة لا تعرفهما ولا تستبيح الظهور بهما . أما الخليع « غير المطبوع » فقد تمضي حياته كلها لا يذوق كأساً من الخمر ولا يقترف فاحشة ولا يخرج على العرف ان لم يجد من بيئته من يغريه وما يغريه ، فهو مقلد في الخلاعة منساق مع القدرة والغواية « الخارجية » وليس له من داخل نفسه دافع الى الغواية

وغريب عند بعض الناس أن يكون الشاعر الخليع محسناً في أبواب الزهد والحكمة والمواعظ الدينية أو الخلقية التي لا تصدر في ظنهم الا عن نفس صالحة وطبيعة متعالية على الشهوات . أما الحقيقة فليس في ذلك غرابة إلا في الظاهر والعنوان ، فمن شأن الخليع أحياناً أن يشعر بالوحشة التي تعقب اللذة ، وبالهبوط الذى يجيء بعد الاسراف في الشهوات واختلال الجسم من أثر ذلك الاسراف . وفي وسعنا أن نتحقق ذلك اذا نحن راقبنا أحوال السكارى المدمنين كلما شعروا بالوحشة والهبوط وتوهموا احتقار الناس اياهم واستياءهم منهم بسبب صحيح أو غير صحيح . فانهم في هذه الحالة يكثرون من الاعتذار وطلب الغفران واختلاق الاسباب التي تستوجب التشفع وتبكيت الضمير . وليست هذه حالة توبة وارعواء ولكنها حالة ضعف توهمهم أنهم محتقرون منبوذون بين الناس فيأخذون فى دفع هذا الشعور بالتوسل والرجاء واستعادة ما فقدوه من الرعاية والتوقير بالمعاذير والشفاعات وذرائع الغفران ، ثم تزول هذه الوحشة فيعودون الى ما كانوا فيه غير حافلين بالملام أو التحقير

> «.. نفس الخيام نفس الحائر القانط ونفس ابي نواس نفس الخليع الذي ولد خليعا بفطرته ، وزادته تربية الشرود والخيام خلاعة على خلاعته . وشتان المزاجان والعقلان والشعران ..»

ويشبه هذا ما هو معهود في الحواضر المصرية بين أناس من محترفي الغناء والرقص وما اليهما من الصناعات التي كانت فيما مضى تلازم حياة السهر والمعاقرة ومخالفة العرف والادب المألوف ، فان أفراداً غير قليلين من هذه الفئة يقضون العام كله في تلك الحياة الخليعة ، حتى يحين الشهر أو الاسبوع الذي يحتفل فيه بمولد ولي من الاولياء أو شيخ من الشيوخ ، فاذا هم متنسكون متخشعون ملازمون لضريح الشيخ أو الولي ، يتبرعون بالغناء والقراءة لانهم « محسوبون » على صاحب الضريح يلتمسون بشفاعته النجاة والتكفير

وانما يلجأ هؤلاء الافراد الى « الحماية » النفسية على هذا النمط لان للخلاعة ضعفا هو أشبه الاشياء عند من يجهله بالتوبة وتبكيت الضمير ، ومن دأب هذا الضعف أن يدفع بصاحبه الى طلب « الحماية » من العالم المجهول ، إذا كان الخطر في ضعفهم غير ظاهر للعيان ولا بالغ درجة الخبل الذي يخلق لصاحبه الاخطار من الاشباح والرؤى والمسموعات ، ولذلك تتشابه « التوبة » المصطنعة وتلك التوبة الحقيقية المنشودة عند رجال الدين والاخلاق

ومع هذا تقرأ زهديات ابي نواس فلا تخطىء في كثير منها شعور اللذة الحسية أو النظرة الحسية الى متاع الحياة كقوله مثلا بعد المشيب :

لله در الشيب من واعظ وناصح لو حظى الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة مهورهن العمل الصالح
لا يجتلى الحوراء في خدرها إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذي سيق اليه المتجر الرابح

فهذا هو الرجل « الخليع » قد شاب ونظر بعد الشباب الى المتعة التي يسمو اليها من يشيبون وينتقلون الى الجنات ، وهو يقارن هنا بين متعتين احداهما ولت ، والثانية لا تزال ميسورة لمن يشتريها بثمنها ، وهو المتجر الرابح متجر التقوى والصلاح

أو كقوله : أيا رب وجه في التراب عتيق ويارب حسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ونجدة ويارب رأى في التراب وثيق
أرى كل حي هالكا وابن هالك وذا حسب في العالمين عريق

ذلك هو شعور الآسف على الدنيا ومباهجها ومواطن الرجاء فيها ، وليس هو شعور المعرض عن الدنيا لانه مطبوع على الزهد ومتانة الايمان بما وراء الظواهر والمحسوسات

وقس على ما تقدم قصائد شتى من « زهدياته » التي يستغربها بعض قارئيه وهي أقرب ما تكون الى أصحاب ذلك المزاج

* * *

ومن الناس ـ وفيهم بعض النقاد الاوربيين ـ من يقارن بين خمريات أبي نواس وخمريات عمر الخيام لانهما كليهما مولعان بالخمر والمتعة بجمال الحسان

ذلك خطأ من أشد الاخطاء وابعدها عن فهم الشاعرين على السواء . فالخيام يطلب اللهو بالخمر والغزل لانه طلب ما هو أعلى من ذلك في دنياه فلم يجده ولم يخطر له رجاء في وجوده ، طلب الحقيقة وطلب أسرار الحيـاة وطلب النفاذ الى ما بعد الموت فلم يصـل الى قرار مقنع مريح . فهو من ثم يطلب الخمر والغزل ليتسلى بهما عما هو أعز وأغلى ولـكنه مفقود في دنياه

أما ابو نواس فالخمر والغزل هما الشيء الاعز والاغلى فيما يحسه ويتوق اليـه ، وهو يعاقر الخمر وينشد المتعة الجسـدية مع اطمئنانه الى الحقيقة التي يعتقدها والاسرار التي يؤمن بهـا والجنة التي ينتظرها بعد الممات ، لانه مسلم لم يتشكك في عالم الغيب ولم ير إلا ان العالم الاخر كائن موجود كهذا العالم المشهود ،وعلى الرغم من هذا هو يتخطى السر والايمان الى عالم اللذات والشهوات، لانه شيء مطلوب لذاته على خلاف كل تحذير وتخويف ، واذا كان العالم الآخر شيئاً مطلوباً كذلك فانما هو مطلوب لانه يسمو فيه الى « نسوة» مهورهن العمل الصالح ، أى يسمو فيه الى متعة أعلى وأجمل من التى تفتنه هنا وتستغويه

نفس الخيام نفس الحائر القانط

ونفس أبي نواس نفس الخليع الذى ولد خليعاً بفطرته ، وزادته تربية الشرود والهيام خلاعة على خلاعته ، وشتان المزاجان والعقلان والشعران !

* * *

ويعزى الى ابي نواس اصلاح قيم في الشعر وجنوح الى التجديد فيه كاستهزائه بوصف الاطلال وما اليها من تلفيق الاستهلال . وهو اصـلاح قيم كما قلنا ولـكنه فى مبعثه يرجع الى نفس « الخليع » كما يرجع اليها السيء والحسن من ملـكاته وفنونه

فالخليع مطبوع على تحدي « العرف » والزراية« بالسلطة » المسموعة المطاعة . ويحلو له كثيراً أن يهزأ بما يوقره الناس ، ويستخف بما تعودوه وهابوه ، ولا سيما ما كان منـه موسوماً

بالخشونة والجلافة ومحاكاة الخشنين والاجلاف ، وان زراية ابى نواس بالاطلال وعادات العرب في الشعر لهي من نوع هذه « الشطارة » الماجنة أو من نوع التهكم الذي يتهكمه « ابن البلد » المعربد بابن الريف الساذج المتزمت في ممت الوقار والحيـاء ، فهى نزوة من نزوات خلاعته تتمثل فيها ابن بغداد في عصر الترف والبذخ والشهوات يماجن على بدوى واقف عند طلل في الصحراء يبكيه ويحن الى معيشته في جواره

ومن معاكسات هذه الخلاعة او نزواتها ما يدفع الخليع الى المضحكات فى تحديه للعرف والاجماع . ألا ترى الى بشار بن برد وهو يتحدى « الآدميين » فيقول في لهجة الغاضب الغيور :

ابليس اشرف من ابيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

فلمن يغضب بشار هذه الغضبة ؟ ومن أى معشر هو غير معشر أولئك « الاشرار » ؟ لا غضب هنا ولا رأى ولا جد ولا مقارنة ، وانما هنا خلاعة يتمادى صاحبها فيها حتى يخلع نفسه عن الآدمية كلها لا عن قبيلة من القبائل أو بلد من البلدان

استحضر نفس الخليع المطبوع في هزله وجده وفيما يحب وما يكره وفيما يبدو من تقواه أو فجوره تستحضر نفس ابي نواس بحذافيرها وتفهمه في أدبه وشعره كما تفهمه فى أخلاقه ومزاجه

عباس محمود العقاد

بنينا على كسرى سماء مدامة
مكللة حافاتها بنجوم

فلورد فى كسرى بن ساسان روحه
إذن لاصطفانى دون كل نديم

« ابو نواس »

فنّ أبي نواس

مثال لطرب الفنان بفنه

بقلم الأستاذ عبد الرحمن شكري



ابو نواس كما تخيله جبران خليل جبران

منذ نحو خمس وثلاثين سنة كنت اقرأ مقامات بديع الزمان الهمذانى، فرأيت فى واحدة منها قصيدة سينية منسوبة الى الحسن ابن هانىء يصف فيها كيف كان الادباء فى ذلك العصر يلجأون الى الاديرة للسمر والقصف ومعاقرة الدنان، حيث لا رقيب من شرطة أو عسس وحيث الخمور غير محرمة بل كثيراً ما كان يصنعها رهبان الادبرة. وفى القصيدة يداعب ابن هانىء الرهبان وقد كشفت لى هذه القصيدة عن حياة غريبة ودلت على ناحية من نواحى المعيشة فى أيامه ورأيت أسلوب القصيدة سلساً له نغمة موسيقية خاصة فاشتريت ديوانه وقرأته

وعندى ان الصفة المميزة لشعره هى صفة فى الاسلوب ناشئة من طرب الفنان بفنه، فهى صفة تنتقل من النفس الى اللفظ او إلى أية أداة أخرى اذا كان الفن غير فن الشعر وهى صفة تدرك أكثر مما توصف، وتراها فى كل باب من أبواب الشعر حتى باب الزهد فان للفنان أيضاً طرباً بالزهد كطربه باللهو

واذا كان أبو تمام قد لقب أبا نواس بالاستاذ والحاذق فلأنه هو الذى فتح باباً توغل فيه ابو تمام وأعنى باب الصنعة البيانية، وهو حاذق فيها لأنها كانت وليدة طرب الفن، فكانت طبيعية غير نابية حتى لا يكاد القارىء يحسها الا اذا بحث عنها عامداً. فهو فى فنه كالممثل الحاذق فى فنه ينسيك أنه يمثل كما ان المصور البارع ينسيك أدوات فنه من دهان وزيت حتى لتحسب أنك ترى جزءاً من الطبيعة والشاعر الحاذق أيضاً ينسيك صنعته البيانية مع اجادته فيها

وقد كان لابى تمام أيضا نصيب وافر من هذا الطرب الفنى، الا أن أبا تمام كان يدفعه طرب الصياغة والصناعة البيانية أحياناً الى المغالاة فى أساليبه البيانية من استعارات وتشبيهات. وقد

أحس كثير من الشعراء بما احس به أبو تمام وفطنوا الى ان الحسن بن هانى كان استاذاً للشعراء فى صنعته ، فكان منتهى ما يسمون اليه ان يحاكوا قصائده وان ينسجوا على منوالها كما فعلوا فى احتذاء قصيدته التى مطلعها : « حى الديار إذ الزمان زمان » والتى مطلعها : « يا دار ما فعلت بك الايام » والتى مطلعها : « أيها المنتاب من عفره » والتى مطلعها : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء » والتى مطلعها : « حامل الهوى تعب » والتى مطلعها : « اجارة بيتينا أبوك غيور » وقد كان النقاد لا يقرون لشعراء المغرب ببلوغ منزلة المشارقة فى الاجادة . حتى احتذى ابن دراج الاندلسى قصيدة ابى نواس التى مطلعها : « اجارة بيتينا ابوك غيور » وقد أجاد ابن دراج فى قصيدته كل اجادة عند وصفه وداعه لزوجه وابنه الصغير . وهى قصيدة قلما تطاول فى هذا الموضوع . وحبذا لو أتيح لديوانه من ينشره ! فان ابن دراج شاعر مغمور ومن يستطيع أن يجيد اجادته فى قصيدته الرائية يستطيع ان يجيد فى غيرها فلا بد ان له شعراً جيداً مغموراً . وقد احتذى البارودى أيضاً قصيدة أبى نواس الرائية . وكل هذا الاحتذاء فضل للشاعر الذى احتذاه الشعراء واعتراف منهم أنه استاذهم . ومن المشاهد ان الطرب الفنى الذى قدمه فى الشعر وجعله أستاذاً للشعراء لا يفارقه حتى فى زهده ! فترى له فى الزهد قصائد يكاد يتغنى بها أو تردد ترديد المستجيد لما فيها من طرب الفنان بفنه مثل قوله :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

الى أن قال : والبس الناس على الصـ حة منهم والسقام

أو قصيدته التى مطلعها : « يا بنى النقص والعبر »

ولعل طربه بفنه وهو طرب نفسانى هو الذى غطى على تأنقه اللفظى فى كثير من شعره حتى سارت أبيات كثيرة له مسير الاقوال التى يتمثل بها وقد ينسى اسم صاحبها . ومن أبياته التى يتمثل بها قوله :

وليس لله بمستكثر ان يجمع العالم فى واحد

يقال فى المدح وقد ورد أيضاً (ليس على الله بمستكثر) وهاتان الروايتان صحيحتان فى الوزن ولكن بعض الكتاب يخلطون ويكسرون البيت فيقولون (وليس على الله) ومن الابيات التى يتمثل بها أيضاً قوله :

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا

وقوله : لا يرحم الله الا راحم الناس

وقوله : لاتتناهى النفس عن غيها ما لم يكن منها لها ناه

وقوله : فود بجدع الأنف لو ان ظهرها من الناس أعرى من سراة أديم

وقوله : مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

وقوله : دارت على فتية دار الزمان بهم فما يصيبهم إلا بما شـــاءوا

وهذا البيت الاخير يذكرنى قول جويتى الالمانى : « الحكمة هى ان يجعل الانسان ارادته فيما يريده له القدر حتى اذا أصابه القدر بشىء كان كأنما شاء أن يصيبه به القدر» وهذا فيه معنى الاسلام وروحه. ومن صفات الحسن بن هانىء فى شعره الجرأة والصراحة، وقد رووا أن الخليفة أراد أن يحده حد معاقر الخمر لأنه أجاد فى وصفها اجادة لايجيد مثلها إلا المعاقر فقال ابو نواس : « وكيف عرفت يا امير المؤمنين انى أجدت وصفها وانت لم تذقها ؟ » وكأنما يريد ابن هانىء أن يورط الخليفة وقد كان ابن هانىء جريئاً على الله حين قال يدعو صديقا لمعاقرة الخمر :

يا احمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

وقد قادته جرأته فى شعره الى السجن لهجائه عدنان

ومن جرأته هجاؤه الأمراء والوزراء ، كما هجا جعفر بن يحيي البرمكى ، وتظهر هذه الجرأة بمظهر التعزز واكرام النفس كما فى قوله وقد تكبر عليه ذو مال :

ومستعبد اخوانه بثرائه لبست له كبرا أبر على الكبر

الى أن قال : لقد زادنى تيها على الناس اننى أرانى أغناهم وان كنت ذا فقر

وقد يبلغ به اكرام النفس مبلغا يحس فيه الجفاء المستتر الذى يعبر عنه ألطف تعبير فى قوله :

لم ترض عنى وان قربت متكئى ياراضى الوجه عنى ساخط الجود

بل استترت باظهار البشاشة لى والبشر مثل استتار النار فى العود

ولا ننسى أنه كان مثل غيره من الشعراء يستجدى بشعره وان كان الشعراء يرون لانفسهم حقا فيما يصيبون من المال لادبهم وفطنتهم وبلاغتهم . ومجونه هو مظهر آخر من مظاهر هذه الجرأة المشاهدة فى شعره . ومما يؤسف له أن كثيراً من المجون الذى قاله فى مباذله خلد ، وهذا المجون هو أشبه بما تسمعه من المجون حتى فى مجالس الوجهاء والعظماء والادباء ، ولكنه لايؤخذ عليهم لأنه لاينشر . فكم من كبير يغرى بالقصص القذرة يسردها ويتمززها وبالنكات المجونية اللفظية والمعنوية يستحلى ترددها فى فمه ثم ينكر نسبتها اليه اذا اقتضى الامر انكارها . وقد اعتذر ابو نواس عن مجونه فى قوله :

عف ضميرى هازل لفظى وفى نظرى عرامه

ويقول ان مذهبه الحقيقى فى الحب الاستمتاع بالنظر . وربما كان هذا الاعتذار منه عند ماقارب الشيخوخة التى يصفها فى قوله :

أرانى مع الاحياء حيا واكثرى على الدهر ميت قد تخرمه الدهر

وله قصيدة يذم فيها عيشة البدو ويصف أثر الحضارة . وهو فى وصفه كاتب ديوان الخراج

فيها كأنما يصف شابا باريزيا بالغ فى التجمل والتطيب والتأنق. وهو فى القصيدة أيضا يعلل مذهبه فى بعض نواحي غزله. وهذه القصيدة تكشف لنا عن نواح من حياة القوم فى ذلك الزمن وأعنى القصيدة التى يقول فى مطلعها: «دع الرسم الذى دثرا». ولكن من مجونه مالايصح ايداعه حيث يسهل أن يستميره ويطلع عليه الشبان المراهقون، لأن أثره فى سن المراهقة غير محمود. ومثله مثل كثير من دواوين العرب وكتبهم فان بها القليل أو الكثير مما ليس له قيمة تاريخية أو أية قيمة أخرى ولا يمكن الاستشهاد ببعضه

وربما شابه الحسن بن هانىء الشاعر الفرنسى بول فرلين. فكلاهما كان يكثر من معاقرة الخمر، وهما شبيهان فى بعض نواحى غزلها وفى رقة الشعر وفى ندمهما وتوبتهما، وان كانت توبة فرلين توبة متكررة أى توبة العائد وكلاهما قد سجن، ولكن لكل مقارنة حداً

عبد الرحمن شكرى

---

* لما قال ابو نواس:

يقولون فى الشيب الوقار لأهله وشيبى بحمد الله غير وقار

امر الرشيد باحضاره. وقال له: «ويلك! أتخالف الاسلام؟»، قال ابونواس: «وماذاك يا امير المؤمنين؟»، قال: «يقول رسول الله (ص) «لايشيب الرجل المؤمن شيبة فى الاسلام الا كانت له حجابا من النار»، وتقول انت كذا وكذا. وما أظنك الا على غير دين الاسلام» فقال: «يا أمير المؤمنين. جعلنى الله فداءك - فانى قلت بعده:

اذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى فان الهوى يرمى الفتى ببوار»

قال الرشيد: «أنت أعلم بخبث لسانك...»

* قال ابو حاتم: «لولا ان العامة ابتذلت هذين البيتين - وهما لأبى نواس - لكتبتهما بماء الذهب:

ولو انى استزدتك فوق ما بى من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياة بعيش مثل عيشى لم يريدوا

ابن هانىء

الشاعر المجدد

بقلم الأستاذ أحمد أمين

« . . كان ابو نواس مجدداً يدعو الى الحياة الواقعية في باب اللذائذ ، ويسير في كثير من الاحيان على نمط السابقين في باب المديح — وشأنه في ذلك شأنه في اللغة والاسلوب ايضاً ، فهو في باب اللذائذ يذوب رقة ، وينفر من الغريب ، ويترك نفسه على سجيتها لا تكلف ولا تصنع ، وهو في باب المديح جار على نمط القدماء

شهد العصر العباسي الاول زعيمين من زعماء التجديد في الشعر : أولهما بشار بن برد وثانيهما أبو نواس

فأما بشار فاكبر ميزة له — استحق من أجلها أن يلقب بزعيم المحدثين — أنه كان فناناً بارعاً ، استطاع أن يصور بفنه الحياة الاجتماعية الجديدة في العصر العباسي تصويراً دقيقاً — فقد تغير نظام الحياة الاجتماعية عما كان عليه في الدولة الاموية فى جميع مناحى الحياة : فى اللهو وفي الجد ، وفى السياسة وفي العلم ، وفي النزعات المختلفة من عصبية عربية وميل الى الشعوبية وغير ذلك ، فكانت كل هذه النواحي تتطلب شاعراً ماهراً ينغمس فيها و يصورها ، ويغترف منها ويعرضها ، لا يكون مقلداً فى شعره جاهلياً ولا أموياً ، لأن الحياة العباسية ليست جاهلية ولا أموية ، فوجدت فى بشار لسانها الناطق وريشتها الماهرة ويدها الفنانة . فغزله لم يكن بدوياً متعففاً إنما كان حضرياً متهتكاً ، وفخره لم يكن بقبلياته انما كان بفارسيته ، وهجاؤه لم يكن كهجاء جرير والفرزدق والاخطل يعير بعضهم بعضاً بفعال القبائل ، انما كان يهجو بالرمي بالكفر والزندقة والقدح في الأعراض في فحش وشناعة ، وعلى الجملة فكان يجيد صياغة ما يتحدث به الناس وما يحبون وما يكرهون وما يعرفون وما ينكرون ، وكما أصبحت حياة الناس ناعمة رخوة أصبح شعر بشار في الكثير الغالب ناعماً رخواً يفهمه الرجال والنساء ، والاحرار والاماء ، ويتمثلون به في مواقفهم ، ويتغنون به في مجالسهم ،

ويشعرون أنه المعبر عن عواطفهم ، المغذي لمشاعرهم ـ إن أغرم الاصمعى وابو عمرو بن العلاء وأمثالهما من العلماء بشعر الجاهلية و بشعر جرير والفرزدق والاخطل من الامويين ، للغته وغريبه ، فآن الشعب أغرم بشعر بشار لانه صورة صادقة له ، يمثل حياته ويرسم آماله وآلامه

من أجل هذا كله كان بشار زعيم المجددين

المجدد الثانى

وجاء بعده أبونواس فسار على أثره وجدد ما فاته ، فان كان بشار يستحق لقب « المجدد الاول » فآن ابا نواس يستحق لقب « المجدد الثانى »

ولنعرض الآن فى ايجاز لضروب التجديد التى أتى بها ابونواس

رأى أبو نواس طائفة كثيرة من الشعراء لا يزالون يتبعون منهج الجاهلية في الشعر ، فيبدأون بالوقوف على الاطلال ، وبكاء النؤى والاحجار ، ولا أطلال في العراق ولا نؤى ولا احجار ، و يشمون الشيح والقيصوم ولا شيح ولا قيصوم ـ ويشعرون شعراً بدوياً ، وهم يعيشون عيشا حضرياً ، فيصفون الابل وسيرها ، والصحراء وأرضها ونبتها ، والصيد وضباعه وذئابه ، والجزور وما فعلوا به ، والخيام وطنبها وأوتادها ، ويعددون أسماء القبائل وفعالها ـ ولا شيء لهم فى الحقيقة من ذلك ، لا يصفون واقعا وانما يصفون خيالا ، ولا يعبرون تعبيراً صادقاً ولكن تقليداً وادعاء ـ فصرخ فيهم ابو نواس صرخة قوية ، يريد أن يردهم عن باطلهم ، ويصدهم عن تصنعهم ، ويطلب اليهم أن يصفوا أنفسهم ، ويشعروا في واقعهم ، فاذا لم يشموا عراراً فيجب ألا يذكروا العرار ، وانما يذكرون الورد والنرجس ، واذا كانوا لا يشربون الخمر ،فلا يصفون شرب الالبان ، واذا كانوا يأكلون لحوم الضان ، فلا يذكرون أكل الضب ، واذا كانوا لا ينتسبون الى قبائل فما معنى ذكر أسد وطىء وتميم وقيس ـ وقد اكثر من ذلك في قصائده ولا سيما الخمريات فقل أن تخلو قصيدة فيها من التنبيه على هذا المعنى

دع الاطلال تسفيها الجنوب وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء ارضاً تخث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً ولا عيشا فعيشهم جديب
ذر الالبان يشربها أناس رقيق العيش عندهم غريب

بأرض نبتها عشر وطلح | واكثر صيدها ضبع وذيب
إذا راب الحليب فبل عليه | ولا تحرج فما فى ذاك حوب
فاطيب منه صافية شمول | يطوف بكأسها ساق اريب

عاج الشقي على رسم يسائله | وعجت اسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد | لا در درك قل لى : من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما | ليس الاعاريب عند الله من احد
لاجف دمع الذى يبكي على حجر | ولا صفا قلب من يصغو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها | وبين باك على نؤى ومنتضد

والديوان مملوء بالشواهد على هذا المعني ، فهو يريد أن يكون الشعراء واقعيين ، يصفون حياتهم ، ويذكرون لذاتهم . ولا لذة عنده خير من الخمر . ولا ذكر أحلى عنده من ذكر الخمر ـ وهو فى هذا أسبق الشعراء الى هذه الدعوة فيما أعلم وأصرحهم . وان كانت دعوته لم تلق نجاحاً كبيراً ، فظل الشعراء بعده الى يومنا يصفون الاطلال ويمتطون الفيافي على ظهور الابل ويستعذبون ذكر الجمل والهودج . وان ركبوا القطار والطيارة ، حتى ان أبا نواس لم يلتزم مذهبه دائما ووقع فيما حذر منه أحياناً فكان يقول مثلا :

اربع البلى ان الخشوع لباد | عليك وانى لم أخنك ودادى

ويقول :

لمن دمن تزداد حسن رسوم | على طول ما أقوت وطيب نسيم

ويقول :

ألاحي اطلال الرسوم الطواسما | عفت غير سفع كالحمام جواثما

ابرز نواحيه فى التجديد

وعلى العموم فقد كان مجددا يدعو الى الحياة الواقعية فى باب اللذائذ ، ويسير في كثير من الأحيان على نمط السابقين في باب المدح ـ وشأنه في ذلك شأنه فى اللغة والاسلوب أيضاً . فهو فى باب اللذائذ يذوب رقة ، وينفر من الغريب ، ويترك نفسه على سجيتها لا تكلف ولا تصنع ، وهو في باب المدح جزل الاسلوب ، جار على نمط القدماء ،

مستعمل للغريب من الالفاظ ، والرصين من الاسلوب ، كما ترى في قصيدته « أيها المنتاب من عفره »

ومن أهم ما أتى به أبونواس أنه فلسف اللذة كما فلسف ابو العتاهية الزهد ، لقد أوتي أبو نواس حساً مرهفا لادراك اللذة ، وشعوراً حساساً دقيقاً للاستمتاع بها ، ولساناً فنانا في التعبير عنها ، يلذ الخمر والغلمان ويلذ أن يسمع اسميهما . ويلذ أن يقول فيهما فأفاض في الحديث عنهما كما أفاض في الاستمتاع بهما . وأخذ يولد المعانى فيهما حتى كاد لا يدع معنى لقائل

قد شعر بشار في الخمر قبله ولكن ما وصل الينا من شعره فيها قليل . وهو فيه لا يكاد يخرج عما استنه قبله الاعشى والأخطل . وقال فيها مسلم بن الوليد فابدع بعض الابداع ولكن أحدا منهما لم يدان ما قال فيها ابو نواس . لقد أبدع في تصويرها وتشبيهها وفعلها في النفس ، كما أبدع في كل ما يتصل بها من نديم وساق وكأس وخمار ، وكما أبدع في وصف مجلسها وما فيه من ريحان وأزهار وطرب وغناء وجوار وغلمان

يشربها صرفا وممزوجة ، وفى السر والجهر ، وشربا متواصلا ومتقطعا ، ومطبوخة بالشمس وبالنار ، وفى الدور وفي البساتين ، وساقيه جارية أو غلام ، أو جارية فى زى غلام . ويشرب فى الارطال وفى الكؤوس المسجدية قد صورت عليها التصاوير . وهو في كل هذه يصف فيجيد الوصف ويظل وراء المعنى يولده ويقلبه على أشكاله المختلفة حتى يستنفده ، وما يفوته في قصيدة يتممه في أخرى حتى أوفى في ذلك على الغاية،وخلف للشعراء بعده ثروة ظلوا ينفقون منها الى اليوم . ويطول بنا القول لو عددنا المعاني التى ابتكرها والمعانى التى أخذها من غيره فجملها وزينها ، وأخذها ـ كما يقولون ـ عباءة وأخرجها ديباجا

كذلك كان شأنه في الغزل بالمذكر بل هو منشىء هذا الباب وفاتحه على مصراعيه . فقد فشا حب الغلمان ، والحديث عن الغلمان في عصر أبى نواس اكثر مما كان في عصر بشار . وأفرط الناس فيه وتسرب الى قصور بعض الخلفاء حتى إن زبيدة رأت هذا الميل في الامين فاتخذت له سربا من الجوارى في زى الغلمان وأطلق عليهن « الغلاميات » فكان ابو نواس أصدق معبر عن هذا المرض الاجتماعى لتهتكه وفجوره . ولنشأته منذ صباه هذه النشأة . فتفنن ما شاء في وصف الغلمان وقدودهم وخدودهم . وكل ما يتصل بهم وكون من ذلك كله بابا فى غزل المذكر على نمط ما قال الشعراء قبله في غزل المؤنث . وأضاف الى ابواب الادب بابا جديدا لا يزال مفتوحا الى اليوم

فكاهته الحلوة

وشيء آخر كان لأبي نواس فيه الحظ الاوفر والقدح المعلى . وهو فكاهته الحلوة ونادرته العذبة ومجونه الفكه . فقد كان ينغمس ـ كما قلنا ـ في الملاهي والملذات ويعل منها وينهل ، وقد كان مع هذا صريحا الى اقصى حدود الصراحة . لايهاب أحدا ، ولا يرعى دينا . فيرسل نفسه على سجيتها ويصوغ من مجالسه وحياته وخلانه وندمانه شعرا لطيفاً يستخرج العجب ويثير الضحك . ويعمد الى من يعيبون عليه استهتاره والى المتزمتين من رجال الدين ورجال اللغة والى الثقلاء من أى صنف ، فيهجوهم ويتنادر عليهم ويلذعهم لذعا فاحشا مؤلماً في لغة سهلة سلسة يفهمها كل من سمعها ، وفي دعابة قاسية مضحكة

ومن أجل ذلك اشتهر أبو نواس بالفكاهة والمجون.وجرى أهل زمانه على مثاله فداعبوا مداعبته ومزحوا مزاحه . وأرادوا ذيوع نوادرهم وأن تقع من الناس موقعا حسنا فنسبوها اليه كما نسبوا الى « جحا » كل ما صنع بعده من جنس قصصه وملحه

أما بعد فقد وضع ابو نواس في الادب العربي أسسا ان لم ترض الاخلاق ، فقد أرضت فن الادب . وان كرهها رجال الدين ، فقد أحبها رجال الفن . على أن رجال الدين ورجال الاخلاق وان كرهوها من أبي نواس وشددوا النكير عليها ، فلم يمنعوا انفسهم من الانتفاع بها والاستفادة منها ، فقال الصوفية في الغزل الالهى ما قال ابو نواس فى الغزل المادى ، ووصفوا خمرهم الروحية بما وصف به ابو نواس خمره الحسية ، وما قاله ابو نواس صراحة ، قالوه هم كناية ، فكان هو المشرع لهم ، وسالك الطريق قبلهم

احمد امين

المفتن أبو نواس

إذا طلبت الفن فعند أبي نواس

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشري

« .. أبو نواس شاعر كما هو انسان . وانك اذا طلبت الرجل المفتن الكامل وقد ملك الفن عليه كل مذاهبه ، وطالمه من جميع اقطاره وجري في اعراقه مجري دمه . انك اذا طلبت هذا المفتن التام ، فارجو أن تجده في هذا الشاعر ابي نواس .. »

ترى هل بلغ أبو نواس ما بلغ فى شعراء العربية ، وذهب له ما ذهب من ذكر وصيت لأنه قال فى مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطف التى لم تخلق ؟

أو تراه اصاب هذا الحظ لأنه قال فى مدح الامين :

وإذا المطى بنــا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام ؟

أو تراه حتما (ابن قوله) فى مدحته للعباس بن عبيد الله بن ابى جعفر المنصور :

لا تسدين الى عارفة حتى اقوم بشكر ما سلفا ؟

أو لعله قد دوى باسمه السهل والجبل لانه قال كيت وكيت . فأتى فى المديح والهجاء ، والرثاء ووصف الجياد والنجاء ، بالوان من المبالغات كثيراً ما كانت سبيل السيرورة ، ومبعث النباهة وسطوع الصيت ! ـ اللهم لا ! . وإذا ظن ان من متقدمى الشعراء من رفع بعض النقدة بمثل هذا اقياسهم واقدارهم فثبت به ذكرهم على الايام ، فان ابا نواس لم يخلد به ، ولا كان قط مدينا له ، وإن كان قد جاء منه بما لم ينته فيه كثير من اعلام البيان منتهاه !

الواقع ان ابا نواس كان من اولئك الافذاذ الذين يشح الزمان بهم ، فلا ينتضح بامثالهم إلا نطافا فى اثناء الحقب الطوال . ولعل كلمة « فلان نسج وحده » التى ينفضها ابناء العرب على المرء إذا عز اكفاؤه ، لا تبلغ موضعها الحق من الجد والصدق والاشراق قدر ما تبلغ إذا اضيفت إلى هذا الرجل العظيم !

ابو نواس شاعر فحل ! يرفعه نقدة البيان إلى الذروة . ويسلكونه فى نظام جميع مع أشعر شعراء عصره ، وقد يؤثرونه على بعضهم ، ويرفعون منزلته عليهم . ما فى هذا شك ولا كان يوما فى مطرح الحوار بين أهل البصر بمنازع الكلام

اذن فابو نواس شاعر من أفحل شعراء العصر العباسي الاول ، وقد احله عند كثرة الناس هذا المحل أنه مدح فلم يتخلف عن ابلغ المادحين ، ووصف فكان من أجود الواصفين ، وضرب في سائر فنون الشعر فما ونى في شيء ولا قصر، بل أرسل من سوابق القريض ما لا يتعلق بغباره ولا يسهل ترسم آثاره ، وماله لايبلغ هذه المنزلة في الشعراء ، وهذه قصيدته في مدح محمد الامين (يادار ما فعلت بك الايام) ، والتي جاء فيها :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك أثام

° ° °

واذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطيء الحصى فلها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الاوهام
ملك اذا علقت يداك بحبله لا يعتريك البؤس والاعدام

وهذه قصيدته التي يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور وأولها :

أيها المنتاب من عفره لست من ليلى ولا سمره
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وهذه مدحته في الخصيب :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

وتلك طواله وقصاره في مدح الرشيد ، والامين ، والعباس بن عبيد الله ، والفضل بن الربيع ، وولديه العباس ومحمد ، والخصيب بن عبد الحميد ، وابراهيم بن عبيد الله الحجبي ، والحسين بن عيسى وغير هؤلاء كثير ـــــ

ثم هذه مراثيه للرشيد ، والامين ، واستاذه والبة بن الحباب وسواهم

وهذه قصائده ومقطوعاته في العتاب ، والزهد ، والطرد ، والغزل ، والوصف ، وغير أولئك مما تستهلك الالمامة به أضعاف القدر المقسوم لهذا المقال . دع أحاديث الخمر والمجون الآن فسينعطف عليها بعد الكلام

وبعد ، فقد انعقد عند جمهرة الناس هذا الحظ من الشاعرية لابي نواس بما يجول في عامة شعره من كرائم المعاني ، وما تنقطع دون بعضه علائق القريض ، من معنى مبتكر يجري في لفظ شريف ، قد تبهج دبجه ، وأحكمت صياغته وألحم نسجه . وكذلك مضى الحكم على شاعريته كما مضى على شاعرية لداته من متقدمي الشعراء في ذلك العصر

وفي رأيي أن شاعرية أبي نواس لم تتجل في حيث يظن هؤلاء . بل لعله إذا ما كان قد دخل عليها نقص ، أو تطرق اليها شيء من الوهن ، فمن هذه الناحية أصابه ما أصاب !

لقد كان ابو نواس رجلا موهوباً حقاً ، وعبقرياً حقاً . كذلك طبعه الله وعلى هذا طواه ، حتى لو جاهد نفسه على ألا يكون شاعراً ما استطاع مهما ألح فى الجهاد ، وهيهات أن يكون لامرىء بتغيير خلق الله يدان !

أبو نواس شاعر كما هو انسان . وانك اذا طلبت الرجل المفتن الكامل ، قد ملك الفن عليه كل مذاهبه ، وطالعه من جميع أقطاره ، وجرى فى أعراقه مجرى دمه ، واعتاج معتاج العواطف فى نفسه ، فامسى وهو لا يكاد يشعر إلا به ، ولا يتذوق الاشياء إلا من حيث يذيقه - انك إذا طلبت هذا المفتن التام فارجو أن تجده فى هذا الشاعر ابى نواس

أبو نواس شاعر بأبلغ ما تدل عليه هذه الكلمة وأدقه وأجمعه واكفاه . هو رجل مرهف الحس ، نافذ الشعور ، خصب الذهن ، صافى النفس ، جوهرى الطبع . وان شئت قلت إنه يكاد يكون فى أصل خلقه مجموعة معان لولا أن تجسد بعضها فاستحال لحماً وعظاما لسبح بكل خلقه فى مسابح الأرواح

هو رجل يشعرك مرسل شعره بأن نظره كان ينفذ الى صميم الأشياء ، بل لقد يشعرك بأن الاشياء كانت تلطف له وتشف ليتناول من صميمها ما يشاء ، وسرعان ما يتنفس بهذا الذى أدرك شعراً إذا ما كف عنه القلم أو حبس دونه اللسان !

فاذا أنت طلبت أبا نواس المفتن فاياك أن تطلبه فى قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

ولا فى قوله :

واذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

ولا فى قوله :

لا تسدين الى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

لا تطلبه فى هذا ولا فى نظائره مما يتكثر به غيره من الشعراء ، فانى أقسم لك بشاعرية أبى نواس على أنها ما جلت عليه قط مخافة نطف المشركين للرشيد ! ولا كان صادق الحس إذ دعا ممدوحه الى ان لا يسدى اليه العارفة . فانه ما اجتمع لنظم القصيدة إلا لاستخراج الصلة ، واصطياد هذه (العارفة !) ولا حرم ظهور تلك الابل التى أبلغته الأمين ولا كانت نفسه لتطيب منها بقلوص واحد فى غير نفع مادى !

اللهم انه فى كل هذا الكلام لا يصدر عن طبع ، ولا يعتاج له حس ، ولا تترقرق به عاطفة ، إن هو الا التكلف فى اصطياد المعانى ، والصنعة فى خلق الاخيلة ، مباراة لشعراء العصر واستخراجا لاموال الممدوحين ، فبهذا كانت تستخرج منهم الأموال

كان أبو نواس فى جميع أسباب حياته شاعراً مفتنا اذ هو الى ذلك رجل مستهتر ، خلع مثانيه ، وتحلل من كل ما يأخذ الناس به نفوسهم فى هذا المجتمع ، أو ما ندعوه نحن فى عصرنا

هذا (بالتقاليد). فاذا رأيته يصف الخمر ويغلو فى مدحها أشد الغلو. واذا رايته يرسل القريض فى الوان العبث، فلا يتحرج من قول ولا يتأثم من نكر، ويبتذل فى هذا من نفسه للناس بما يضن به ادناهم مروءة على ذات نفسه مهما يكن فى سر من الناس - اذا رأيته كذلك فاعلم أنك فى شعر ابى نواس المفتن حقا والمرسل النفس حقا والمنتضح الطبع حقا. اما اذا رأيته فى ذلك الذى أغلى اقدار غيره من الشعراء من المديح وغير المديح، فاعلم ان الرجل قد خرج عن طبعه، واطرح شاعريته وراح يتكلف القريض تكلفا، حتى اذا اصاب به رزقا، اقبل على نفسه واعتنق شاعريته الحق. فلا يزال فى شأنه حتى ينفد زاده، ويرق عتاده، فلا يرى بدأ من أن ينقلب الى معالجة (المهنة) وهكذا.. قال أبو نواس فى إحدى مدائحه يصف الناقة:

ولقد تجوب بى الفلاة إذا ... صام النهار وقالت العفر
شدنية رعت الحمى فأتت ... ملء الحبال كأنها قصر
تثنى على الحاذين ذا خصل ... تعماله الشزران والخطر
أما إذا رفعته شامذة ... فتقول رنق فوقها نسر
أما إذا وضعته عارضة ... فتقول أرخى فوقها ستر
وتسف أحياناً فتحسبها ... مترسما يقتاده إثر
فاذا قصرت لها الزمام سما ... فوق المقادم ملطم حر

وقال يصف النياق التى حملته إلى ممدوحه:

اليك ابن مستن البطاح رمت بنا ... مقابلة بين الجديل وشدقم
مهارى إذا أشرعن حر مفازة ... كرعن جميعاً فى إناء مقسم
نفخن اللغام الجعد ثم ضربنه ... على كل خيشوم نبيل المخطم
حدابير ماينفك من حيث بركت ... دم من أظل أو دم من مخدم

وقال غير هذا وهذا فى وصف النياق، ولكم وقف فى أشعاره بالديار، وبكى النؤى والأحجار، فنحا فى قريضه منحى العرب السابقين، وأتى بالجزل من اللفظ، واستكثر من الغريب، بحيث لو أضيف أكثر هذا إلى بعض شعراء الجاهلية، ما تفطن إلى مواضع الصنعة فيه من النقدة إلا قليل. ومع هذا كله فلم يكن به الشاعر المفتن، وإن شئت التعبير الأدق قلت إن أبا نواس لم يكن به أبا نواس، لأنه فيه حاك مترسم، لا يفضى بذات نفسه، ولا يترجم عن شىء من حسه. ومالى أجهد فى مذاهب التدليل، وهذا قول أبى نواس نفسه فى تهكمه وزرايته بهذا الضرب من الشعر أصدق دليل، قال:

قل لمن يبكى على رسم درس ... واقفاً ما ضر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به ... مثل سلمى ولبينى وخنس

اترك الربع وسلمى جانباً واصطبح كرخية مثل القبس

لعله قد خرج لنا من كل ذلك أن أبا نواس إنما كان يجتمع اجتماعا لنظم هذا الشعر الفخم الذى يرفع به كثرة النقدة شاعريته ، وكان يلهب عصبه ، ويشب ذهنه فى صنع الأخيلة واختلاق فنون المعانى ، ويذكى ذاكرته فى التماس ما عسى أن يكون جاز به من غريب اللفظ ويجفوه ، ليكتب له التقدم والتبريز على شعراء عصره . فمشاكلة شعر الجاهلية ، فى عرف بعضهم كانت السبيل الى البراعة والتبريز

ولقد يدل هذا منه ومن غيره على كفاية كافية ، ولقد يدل على براعة فى نظم الشعر بارعة ، ولكنه لا يدل قط على ان مفتنا يترجم عن حسه هو ، أو بعبارة أخرى ، على ان عبقرية تلهم ومفتنا يستلهم ، أو على ان عبقرية تأمر ومفتنا لاسعى له إلا فى التدوين والتسجيل !

فاذا تطلعت إلى شاعرية أبى نواس ، فالتمسها فى مماجنه ومباذله ، والتمسها فى كل ما يبعث شعوره من منظر يهيج ومقام يذكى الحس ويهيج

التمس شاعرية أبى نواس الحق حيث يصف آثار مجلس شراب :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى وجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابس
تدور علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مهى تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبهم وللماء ما دارت عليه القلانس

وفى قوله يصف الخمر وساقيها :

اذا عب فيهـــا شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليـــل كوكبا
ترى حيث ما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدير بها ساق أغن ترى له على مستدار الاذن صدغا معقربا
سقاهم ومنانى بعينيــــه منية فكانت إلى قلبى ألذ وأطيبا

وحسبى هذا القدر من الاستشهاد ، وإلا هويت معه من التنكر الى قرار سحيق ، أسأل الله أن يغفر لى ويغفر له . ولقد ترى عامة شعره فى هذا سهلا ميسرا حتى كأنه حديث من الحديث ، وهذا الذى تتقطع دونه علائق القريض . على أن أئمة البيان قد عرفوا له هذا . وأجلوا به محله ورفعوه الى الذروة بين نظام الكلام

عبد العزيز البشرى

هل كان أبونواس مجنوناً

عرض وتحليل

بقلم الدكتور محمد زكى شافعى بك

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقول : ماهو الجنون ؟ وبمعنى آخر : ماهو المرض العقلي ؟ المرض العقلي مرض عضوى ، أى أن منشأه تغير أو تلف فى الأنسجة قد ينتج عنه اضطراب القوى العقلية . وللوراثة دخل كبير فى احداثه

ولكن بعض الناس يلحظ عليهم شيء من الاضطراب العقلي وليسوا مجانين . فما الحكم على هؤلاء ؟ ان هؤلاء مصابون بأمراض عصبية وظيفيه او - كما يسميها البعض - « امراض عصبية نفسية » منشؤها تنازع بين عواطف أو مركبات فى العقل الباطن ، فيضطر المركب أو العاطفة المكبوتة أو المغلوبة على أمرها أن تظهر فى شكل عرض من الاعراض الذى يماثل عرض المرض العضوى ، ككبت الخوف عند الجندى وعدم السماح له بالظهور بمظهره الطبيعى وهو الهرب خوفا من القتل ، ولما كان لا بد من مخرج له فانه قد يظهر بشكل شلل فى الطرف السفلى للجندى وبذلك يمتنع الجندى عن الحرب . وهذا هو غاية الغايات للخوف . وهذا الشلل ليس عضويا فهو وظيفى لأن الانسجة العصبية سليمة وانما الذى تعطل هو الوظيفة فقط ، وهذا هو الفرق بين المرض العضوى والعصبى النفسانى

كما أن هناك مرضاً خلقياً يحدث بسبب كبت العواطف والمركبات أيضا ونميزه عن المرض النفسانى بأنه لاتوجد له أعراض جثمانية ، بل أعراضه خلقية أى يظهر بشكل اضطراب فى السلوك كالشذوذ الجنسى الذى ينشأ عن كبت الرغبة الجنسية الطبيعية كجلد عميرة أو نحوه

وللبيئة دخل كبير فى استحداث المرضين الأخيرين ، وتأثير الوراثة فيهما قليل جداً ، وتأثير البيئة شديد الفعل فى سن الطفولة وخصوصاً فى السنوات الخمس الاولى لأن المخ فى هذه السن يكون كصحيفة بيضاء لينة القوام يؤثر فيه كل ما حوله ، خصوصا ونحن نولد غير مدربين أو مكيفين لكفاح الحياة ، ولذلك كان لما يطبع على المخ فى الطفولة أفعل الأثر فى كل ادوار الحياة تجاه العالم نفسه وتجاه أنفسنا ، سواء كان من تفاؤل أو تشاؤم ، تساهل أو تعنت ، تعال أو اسفاف

ولنضرب للقارىء مثلا بغريزة الاعتداد بالنفس (الطموح) . فهذه الغريزة قد ينجم عنها ما يأتى اذا لم تنبعث عواطفها طبيعيا :

مرض عضوى وذلك بسبب دفعها صاحبها الى ارتياد مجاهل البلاد والآجام للشهرة أو للحصول على المال ، كأن يرتاد أواسط آسيا أو افريقية فيصاب بمرض عضوى بسبب رداءة الجو أو عدم صلاحية الغذاء أو الماء أو شدة الحر أو البرد

مرض عصبى نفسانى وذلك لكبت عواطف عالقة بفكرة خاطئة انبثت فى المخ فى زمن الطفولة (أى كبت مركب نفسانى) كأن يدعى والد أمام طفله بأنه رباه بحيث أصبح انموذجا ، فهذه الفكرة الخاطئة تحيطها عواطف الاعتداد بالنفس وحب الشهرة حتى ان هذا الطفل اذا مارس فنا كالتصوير مثلا يصبح وهو لا يطيق أى نقد بل يقابله بالتهيج وربما بالاعتداء بالقول أو بالفعل ، وهذا التهيج أساسه المركب المكبوت وهذه الحالة حالة مرض نفسانى

مرض خلقى نتيجة كبت غريزة الاعتداد بالنفس أو المركب الناجم عن العواطف المنبثة منها وتعلقه بالفكرة الخاطئة كما أسلفنا ، كأن يفهم الطفل أنه خاق لان يكون ذا سلطان على غيره . وهذا المرض قد يكون كالسادزم (أى عدم تنبه الغريزة الجنسية إلا بالتعذيب) أو القسوة الشديدة أو غلظ القلب الخارق للعادة

وقد ينجم عن ذلك مرض آخر (الجريمة أو الذنب) وذلك تلبية لمطامع هذه الغريزة المكبوتة فينحدر الشخص بخلقه الى مستوى منحط ويصبح مثله الأعلى سافلا فيقترف الآثام والجرائم كالسرقة أو الخيانة ، حتى خيانة الوطن والعياذ بالله ، اشباعا لجشعه

ولنسبر غور نفسية أبى نواس الآن لنرى هل ينطبق عليه أى مرض من هذه الامراض أو هل كان عاقلا ؟

ولنصل لذلك سيكون رائدنا فى التحليل سلوكه والاسقاط التاريخى أى استعراض تاريخ حالاته النفسية

لنبحث بيئة أبى نواس فى طفولته ، فلو صح أنه كان وليد عشق أبيه لأمه - كما يقول بعض الرواة - وأن أمه كانت مستهترة بالاخلاق ، أى أنه كان يعيش فى جو لا يمت للفضيلة بصلة ، فلا شك فى أن هذا الجو يؤثر فى مخه الابيض النقى ويجعله يأخذ عنه كل العناصر التى تؤلف خلقه فى مستقبل حياته ، ويجعله ينظر للحياة بالمنظار الذى كان ينظر به أبوه أو أمه فتكون مظاهر عواطفه ومشاعره متماثلة عند مصادفته لحوادث مشابهة للتى تركت طبعاتها بمخه . فابن الفاجرة قد لا يرى فى الفجر غضاضة عندما يشب ويخرج عن الطرق كما قد تكون المظاهر مضادة لذلك على خط مستقيم ، ولذلك قيل قديما إنه قد يخرج من ظهر الطالح صالح . والشواهد على ذلك عديدة . فأولاد المدمنين الخمر كثيرا ماينشئون وهم يكرهون حتى رائحتها . فأبو نواس لو صح ما كتب عن

أمه يكون استهتاره ناشئاً عن بيئة طفولته غالبا ، ويكون قد نسج على منوال ما كان يرى ويسمع ولم يرو مطلقا أن مرض الجنون كان فاشيا فى أسرته ولهذا أهميته كما أسلفنا وكما سترى

وفى السن التى تلى الطفولة قرأ القرآن الكريم . ولا شك ان حفظه للقرآن واستيعابه لحكمه الغالية وجدا مكانا خالياً فى صحيفة مخه فانطبعت آثار ذلك وظهرت نتائجه فى زهده فى شيخوخته وانتهاجه سبيل الرشاد

وفى يفعه عند ما أسلمته أمه الى عطار أو براء يبرى أعواد البخور ليحترف حرفة يتعيش منها كان فى عصر ازدهر فيه الادب وعلا شأن الادباء والشعراء واتصلوا بالخلفاء حيث كان يجزل لهم العطاء فضلا عن المكانة الرفيعة التى كان يتبوأها رب الحظوة والمنعم عليه . وفى سن اليفع وما بينها وبين العشرين من العمر تعمل النفس للبحث عن مثل أعلى أو غاية ليتم تكوينها فيتخيل الانسان هذه الغاية ويسعى ليتم بها نفسه لأنه يشعر بالنقص ولاسيما فيما يتعلق بالغريزة الجنسية ، فاذا لم يصل الى هذه الغاية فقد يتحول الى أغراض أخرى نافعة كالاعمال الاجتماعية أو غيرها أو قد يهوى الى الحضيض بما يلحقه من خور العزيمة وانحطاط النفس

فابو نواس فى العصر الذى وجد فيه كان مثله الاعلى فى هذه السن بلوغ أعلى المراتب فى الشعر ولذلك اشتهى الكلام وجلس الى أصحابه

ولكن فى الوقت نفسه كان يطغى على العصر - كما هو الحال فى عصور الترف فى كل الازمان - موجة الزندقة وتيار الفسق والاستهتار ، وابو نواس لاستعداده منذ طفولته ولتركيب جسمه وملاحته ، ولعل ذلك لتغلب الانوثة فيه على الذكورة ، أو لعل ذلك أيضا لنقص بعض افرازات الغدد الصماء كالخصيتين . ولتلمذته لوالبة بن الحباب - اندمج فى وسط الزنادقة والفساق وأخذ عنهم الأدب والمجون فى وقت واحد ، فطغى ذلك على مثله الأعلى رغم اختلافه الى فطاحل الافاضل كأبى زيد وابن زياد والقطان والسمان

وابو نواس لظروفه السابقة معذور لخضوعه لوالبة لا للاسباب المتقدمة فقط بل لان غريزة الخضوع كانت متنبهة فيه أكثر من سواها ، لما كان يشاهده من خضوع النساء فى منزل أمه للرجال أو خضوع القيان فى ذلك لزمن للرجال وذيوع حوادث الحب وما يتبعها ، وكذلك لأنه وقع فى فخ والبة وهو فى السن التى يميل فيها الانسان لجنسه . فالطفل يحب نفسه ولذلك نجد حب الاثرة بارزا فى خلقه ، واليافع يحب زملاءه من جنسه ، والاولاد فى هذه السن يلعبون معا والبنات كذلك ، واما البالغون فيحبون الجنس المغاير لجنسهم . فابو نواس فى السن التى يحب فيها الانسان من هو من جنسه اقتنصه والبة فارقف نمو غريزته الجنسية عند هذا الحد ، ولكن اذا كان ابو نواس وقع فى بيئة فاضلة تقية وهو فى الدور الاول أو حتى بعده مع وقوف نفسيته عند هذا الحد فقد كان يمكن التصعد بهذا الميل الشاذ الى الاشتراك مع الذكور مثله فى انشاء

الجمعيات أو تأسيس المنتديات الادبية أو الدينية أو غيرها ، وبذلك كان يمكن تنجيته من هذا الشذوذ . ولكن والبة وعصبته لم يكونوا ليرضوا عن شيء من هذا

وبطبيعة الحال ليكون المجال شاملا لكل أنواع الملاذ علمه والبة شرب الخمر وتأصلت عادته في نفسه . ولما وصل لدور الرجولة تفنن في معاقرتها وفي مدحها واستمر حتى سن متأخرة في كهولته متهتكا

وادمانه الخمر مرض وليس بجريمة وكان عقابه عليه خطأ بينا . لأن شربه الخمر كان مدفوعا له بعامل نفساني باطني وهو تنازع المركبات أو العواطف الزائغة بعقله الباطن : هناك أصله الحقير ولذلك كان يتمسح بانتسابه لامراء اليمن أو للفرزدق أو لغيرهم . وهناك شذوذه الجنسي الذي معناه وقوف نمو الغريزة الجنسية الى سن اليفع فقط وتنازع هذا مع ما كان يجب أن يكون عليه بانتقاله الى السن النفسانية التي فيها يميل الانسان الى أفراد الجنس الآخر ،فكان أقرب وسيلة واسهلها لتخليصه من هذه الحالات النفسية اللجوء الى الخمر بغير ارادته بل كان يدفع لها دفعاً ولو أنه القائل فيها :

وهي لدفع الهم والا حزان من خير علاج

وكذلك هو القائل بما ينم عما في باطن عقله :

لاتلمـــنى على التي فتنتني وارتني القبيح غير قبيح
قهوة تترك الصحيح سقيما وتعير السقيم ثوب الصحيح

ولكن المرض في أواخر كهولته اضناه واضعف من ارادته التي هي أبرز ظاهرة للعقل الواعي فظهرت له واضحة غير مبرقعة عواطفه ومركباته الخاطئة فأفرج عنها

وكان لايخفف من حالته النفسية إلا التصاعد أو التسامي ، فسما بعواطفه وصعد الى الزهد وتغير مثله الأعلى حيث أصبح عفو المولى عز وجل وغفرانه له ذنوبه

وابو نواس الذي كان ينكر البعث في قوله :

وليس بعد الممات مرتجع وانما الموت بيضة العقر

يقول فيما بعد :

سأسأل عن أمور كنت فيها فما عذري هناك وما جوابي
بأية حجة احتج يوم الـ حساب اذا دعيت الى الحساب

من هذا يمكن أن نستنتج أن أبا نواس كان مريضا بمرض عصبي نفساني وآخر خلقي ، ولم يكن مريضا بمرض عقلي ، ويمكن أن نرجح شفاءه منه قبل وفاته

دكتور زكي شافعي

ابو نواس

في رأي المستشرقين

☆ تحتل الخمريات فى شعر أبى نواس مكان القلادة من العقد ، وقد حذا فيها حذو « الوليد بن يزيد » وبعبارة أخرى نسج على منوال عدى بن زيد من طريق غير مباشر

وليست مدائحه فى مثل جودة خمرياته ، فانك لتلمس فيها أثر الصنعة والتكلف بارزاً واضح الزخرف ، بينما فى مراثيه احساس عميق وحزن يتغلغل الى الصميم يجعلك تغتفر له بعض الهنات

وأما غزله فبعضه صادق ينم عن وجد برىء ركاك يذوب رقة وعذوبة تنفجر منه عاطفة صادقة ، وبعضه مستهتر خسيس يتدلى الى الحضيض . وهجاؤه متين جزل ، فيه جفاء وغلظة وخشونة أحياناً ، لذاع ظريف ، الا أنه كثيراً ما يسف . ومثل هجائه مجونه ، ولكن عتابه رصين ينزع الى الجد — (بروكلمان)

☆ يزعم « فون كريمر » أن شاعرية أبى العتاهية أنقى جوهراً وأصدق عبقرية من شاعرية أبى نواس . وهو رأى لا استطيع ان اوافقه عليه . فكلا الشاعرين نموذجان يمثلان جانبين متناقضين لعصرهما . فانه إذا كان أبو نواس يمثل الصورة العابثة الخليعة للمجتمع ، أو بالاحرى — مجتمع الطبقة الارستقراطية الحاكمة — الذى أقبل على اللهو وانقطع له وشرب كاسه حتى الثمالة ، فان أبا العتاهية قد علمنا شيئاً من الاحساس الدينى والعقائد التى فشت بين الطبقتين الوسطى والدنيا والتى جعلت أفراد هاتين الطبقتين ينظرون الى الحياة نظرة جد وسمو

يحتوى ديوان أبى نواس على أغراض شتى — مدح وهجاء وترضيات ومراث وزهديات ، لكن الحب والخمر هما اللذان ألهما عبقريته أكثر من اى باعث آخر —

لقد ذاق أبو نواس صنوف اللذاذات التى بشر بها وعب من المتع التى دعا اليها . فهو فى شعره قد تجنب التظاهر والرياء . وحتى المسحة الدينية والخلقية التى ينصبغ بها بعض شعره ليست مجرد تظاهر وادعاء . وانما تعبر عن عاطفة صادقة عابرة (نيكولسون)

☆ برز الشاعر ابو نواس — نصف الفارسى — على شعراء البلاط فى عصره . وبزهم جميعاً . والحق انه لا يدانيه فى العربية شاعر من حيث نصاعة الاسلوب وصدق العاطفة وبراعة البيان وامتلاك عنان اللغة . وانه ليحلق فى خمرياته الى الذروة ويبلغ النهاية ولكن مراثيه وغزله وهجاءه . وان تكن تحتوى على الكثير مما نعافه ونسترذله ، فلا تقل عن خمرياته جودة ومتانة نسج الا شيئاً يسيراً .

(حيب)

الحب

في حياة أبي نواس

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

الحب في حده الطبيعي - الحب عند أبي نواس - غزل ابي نواس بالمؤنث - ابو نواس في مجالس أنس - ظرفه في مجونه - مقارنة بين نديم الامين ونديم شارل الثاني

الحب في حده الطبيعي

كل جنس مدفوع الى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية الآمرة التي أودعها خالق النسم في كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . واذا كان أمر من الامور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على الاحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الأول في نظام الوجود ، وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الانسان الشخصية ولابست أول مشاعره وشعائره الدينية

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق، وعامة كل العموم . وهي تشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الانسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل

وهي بعد مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسي والعاطفي والروحي . وهذه العوامل فينا متواشجة متلابسة ، تتحول فيما بينهـا مؤثرة متأثرة . وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة . على أن المغلوب لا يبرح على كل حال حي الجذوة كامن القوة

والصبي إذا أدرك سن المراهقة . وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسة يشبع بها هذا السعار الجنسي ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسدية على حالها . فان كثافتها لتلطف وإن حواشيها لتتلون بألوان الطيف وتضفو على أعطافها أبراد الخيال والشعر . وذلك لأن المرء له الى كيانه العميق السفلي كيان رفيع علوي يقتضي التعاطف بين قلب وقلب والتوافق بين مزاج ومزاج ، والتجاذب الخفي بين الارواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ويجعل أنفسهم أطيب ماتكون بالبذل أو المفاداة وانكار الذات

على أنه لن يفتأ بين هذا الافق السماوى وذاك القرار الارضى صلة غير مقطوعة كالزهرة أصولها مطمورة فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة ماتزكو به الزهرة

فالشهوة هى التى يفنى فيها الحس وحده ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبة . فاذا ماترقى بها الانسان الى الحب كان شوقه دائماً - ولعله يتزايد لا تشبع نهمته ولا تفثأ غلته - كشوق ابن الرومى :

أعانقها - والنفس بعد مشوقة اليها - وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاها - كى تزول حرارتى - فيشتد ما ألقى من الهيمان !
وما كان مقدار الذى بى من الجوى ليشفيه ما قد ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعى السليم . فليس فيه انكار الزهاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق المتصوفة الى ماوراء الحس وحنينهم الى الاتحاد بالروح والفناء فى المحبوب

الحب عند ابى نواس

وعلى غير هذا المثال كان صاحبنا ابو نواس . ولئن كانت حياته كلها مجونا ، فلأنه ما كان ليعرف من هذه الملذات الروحية شيئا ، وانما عاش عمره عبد حواسه

فالحب عنده خصر نحيل وردف ثقيل أو على حد تعبيرهم : خوط بان على دعص نقا . ومحبوبه دائما شادن ذو غنة ، بلون العاج ، كالبدر فى غرته ، يتثنى كالغصن فى مشيته ، وفى مقلتيه تكسر وفى كلامه فتور . ثم إن أبا نواس لايعرف من الحب غير قضاء الشهوة فى التو والساعة . وقد أشار الى هذا الشره فى أكثر أشعاره . فليس عند هذا الماجن غير الاشتهاء البهيمى يحركه الحسن ، سواء أكان فى تقاطيع الجسم أم فى رشاقة الحركة أم فى حلاوة اللحظ حتى الكلام يقول فيه : « لولا فتور فى كلامك يشتهى »

وانك لتقرأ عن أبى نواس حذقه القرآن وتلقنه علوم الدين واقباله على الكلام والجدل وطلبه للحديث ونظره فى النحو وحفظه للغريب من الألفاظ وتفقهه فى اللغة واحاطته باخبار العرب وأيام غيرهم وروايته الشعر ودرسه معانيه وكثرة محفوظه من الاراجيز والقصائد والمقطوعات وشهادة أهل العلم والادب بما له من المنزلة فى العلم والادب فضلا عن إلمامك بالمهذب المختار من شعره الفحل ، ثم ترجع الى ترجمة حياته الخاصة والى ديوان شعره ، فلا تصدق إلا انك تطالع شخصين لايمت هذا لذلك بأدنى سبب من قرابة أو نسب

ماذا تقرأ ؟ تقرأ عن شهوة فاسدة ، وغريزة منتكسة ، لم تختص بها فترة دون أخرى ، بل

انتظمت من حياته أدوارها كلها ومراحلها حتى الأخيرة . واذا كان الناس قد اعتادوا التغنى بطهارة الصبا ، فان أبا نواس لم يعرف الطهر فى صباه حتى لتحسبه ولد والرذيلة معه من بطن واحد ، ولم يكتسبها من أهل زمنه فى أحضان البيئة العباسية المتحررة المستهترة

والغزل بالمذكر ينتظم حياة أبى نواس وشعره ، متقداً صارخا لا تهدأ فورته ولا تخفت دعوته من البداية الى النهاية

غزله بالمؤنث

غير اننا نعدو الحق اذا لم نذكر الى جانب هذا شعراً غير قليل من جيده عالج الشاعر فيه الغزل بالمؤنث كما هو الطبيعى فى الحب والمألوف فى الغزل . ولكننا نعدو الحق أيضا اذا لم نقرر أنه فى تشبيبه بالنساء انما يعالج فنا من أبواب الشعر ، فيفتن فيه بما طبع عليه - وهو الفنان المطبوع - من براعة التصوير وحسن النظم وعذوبة النغم :

وذات خد مورد فتانة المتجرد
تأمل الناس فيها محاسنا ليس تنفد
الحسن فى كل جزء منها معاد مردد
فبعضه فى انتهاء وبعضه يتولد
وكلما عدت فيه يكون بالعود احمد

ثم ان أبا نواس لاشك معتذر عن غزله بالمؤنث - ومن كان مثله لابد له من الاعتذار - وعذره أنه انما كان يشبب بنوع من النساء ليست فيهن واحدة من الحرائر . وهذا يتفق مع تهتكه ومجونه فضلا عن أن لهن فوق ذلك فى مظهرهن مايتسق وذوقه فى الجمال المذكر . فكل نساء شعره من القيان والجوارى ، لم يخلقن لغير اللهو ، ولاوجود لهن إلا به ، ولايتفاضلن إلا باتقان أسبابه . فهن يتعرضن للرجال ويعرضن لانظارهم وتحت حسهم من المحاسن والفنون مايختلهم عن عقولهم ، ويغلب عليهم ثائرة الشهوات ، فينطلق فيهم من عقاله الانسان الحيوان . وهذه لاغيرها هى غواية الجوارى والقيان لمن كان كالنواسى من الفساق والمجان

ولا يغيب عنا ظاهرة فى جوارى ذلكم العهد . فقد كن فى شكلهن وزيهن وفعلهن أقرب الى بنت اليوم «الرياضية» كما يكنون عنها - فهن شاطرات ، فارهات ، مطمومات الشعر ، مقرطقات متمنطقات ، أشبه ما تكون أثوابهن بالزى الاخير إذ يلتزم الجسد من ضيقه التزاما حتى ليرسم للعين تقاطيعه الممكورة ، وينحسر من قصره عن السيقان ويبدى ربلاتها المنسوقة ، فلا تسحب له صاحبته ذيلا ، ولا تنازعها الريح من بنائقه فضلا . ولقد تخرج الجارية منهن متبرجة فى زينتها أيما تبرج ، فى وشى منسوج بالذهب فى قباء وسراويل ، ومحبسة ابريسمية على الرأس ،

ومنطقة مفرقة على زرياب حرير عريض تغيب فى خصرها الهضيم ، وفى القدمين نعل مغشاة بديباج ، وفى يدها قضيب خيزران تعبث به . اليست هذه التى نصفها مثالا سابقا للفتاة الغربية التى ينعتها الفرنجة فى عصرنا هذا بالغلامة La Garçonne ، والتى هى أثر من آثار تطور الاخلاق والآداب بعد الحرب العظمى ؟ وانه لمن التوافق العجيب أيضا أن يكون هذا الاسم بعينه هو الذى يوسم به أولئك الجوارى فى عصر أبى نواس . فاسمع له يصفهن فى القصيدة التى يقول فيها متحرقاً : « عذبنى حب غلاميات » الخ

أما أساليبه معهن فهى أساليب شبابنا فى المعاكسة . فلا يزال يترصد للواحدة يرقبها فى حركاتها وسكناتها ، ويعمل الطرف نحوها ويلهج باطرائها ، ومن حيثما أقبلت فهو فى اثرها يبرمها ويضايقها :

أمشى الى جنبها أزاحمهـــا عمداً ، وما فى الطريق من ضيق

وهو تارة يضرع اليها ، وتارة يضحكها ، جاداً وهازلا ، حينا بعد حين . لا يرعوى مهما انتهرته ولا يرجع مهما سبته

فالحب عند شاعرنا ضرب من اللهو والعبث ، حتى ما كان منه مع « جنان » جارية الثقفى على الرغم مما يروى من شغفه بها وصدقه فى حبها . ويستدل من أبيات له فيها أن العبث هو الذى كان قد أغراه بها كما أغرى بغيرها من قبل ومن بعد :

صار جدا ما مزحت به رب جد جره لعب

ولقد أضحك أخا الثقفى تشبيب سمعه لأبى نواس بجنان ، وأردف مؤكداً : « جنان جارية أخى ، ولم تكن فى موضع عشق ولا عشرة . ولا كان مذهب أبى نواس النساء . ولكنه كان عبثاً منه » . والحق ان أبا نواس عاش ومات على شذوذه الجنسى

ولسنا فى حاجة الى شهادة الشهود وتدعيم الاسانيد بالاسانيد ، فله أشعار كثيرة فى ذم النساء ومدح الغلمان خرجت من التلميح الى التصريح . ولقد كان العصر كله عصر شذوذ جنسى . فكان الآباء يلقون من أبنائهم كل عنت وبلاء ، ويحتاطون دون افسادهم بكل ضروب الوقاء

ابو نواس في مجالس انسه

وكان أبو نواس واخوانه « عصابة السوء » يجتمعون فى منازل الخمر ودساكرها المبثوثة فى سواد المدينة بعيداً عن رقابة الشرطة حيث يقوم دهاقين الخمارين وجلهم من اليهود والمجوس والروم . ولقد يكون ملتقى أصحابنا أحيانا فى الخلاء وسط الحدائق الفيحاء وعند الجداول المطردة الرقراقة تحت اعراش الكرم بين ترجيع الاطيار وتطريب الناى والعود . أوفى دار أحدهم بعد أن يستعدوا لها بأطايب الطعام من لحم طير وأتابيعه ، وبالدنان من معتق الشراب ،

وبالآلات من مزمار وبربط وصنوج ، وبالمغنين والمسمعات ينشدونهم عليها تلاحين الموصلي وزلزل . وفى هذه المجالس يدور عليهم الساقى ، غرير الصبا ، متوجا باكاليل الريحان ، يحمل على راحته زجاجات البلور أو طاسات اللجين ، مترعة بالراح صرفا أو مشعشعة . وليس يمل ابو نواس من وصف مجالس الشراب ونعت الخمر وتعديد صنوفها وتفصيل صنعها والتغنى بالوانها من الكميت والاصهب والذهبى ، وكيف تهدى للشرب نكهة طيبة كنفح المسك ثم كيف تنصب من الابريق كالشهاب وتنزى فواقع حببها كالشرر عند المزج ، وهو يكنى عن مزاجها بتزويج ابنة العنب بماء المزن ومن هذا الزواج السعيد يتولد الفرح ، فاذا تحدث عن شاربها دعاه بخاطبها وأوصاه بألا يغليها المهر وافتخر باتلافه المال فيها والنشب :

طربت الى قطربل فأتيتهـــا بألف من البيض الصحاح وعين
ثمانين دينـــاراً جيادا أعدها فاتلفتهـــا حتى شربت بدين
رهنت قميصا سابرياً وجبـة وبعت إزارا معلم الطرفين

وكل هذا عنده قليل فى مقابل جرعات من مدامة معتقة هى ترب الدهر فى القدم ، كأنما تقص قصة الامم ، تطرد الهموم والآلم ، وتتمشى فى المفاصل كتمشى البرء فى السقم . وهم يطوون على هذه الحال من السكر يومهم وليلتهم ، وقد يطوون الاسبوع والشهر

ظرفه في مجونه

ومن مجون أبى نواس ماهو ظريف بارع فى الظرف كالصورة التى يمثلها لنفسه ، كما يريده الخليفة ووزيره على أن يكون زاهدا متبتلا ، وهى صورة لايسع أشد الزهاد تزمتا إلا أن يبسم لخفة التهكم المتراءى بين سطورها فى خفاء ولطف :

لو ترانى ذكرت للحسن البصـ ـرى فى حسن سمته وقتاده
المسابيح فى ذراعى والمصـ ـحف فى لبتى مكان القلاده
واذا شئت أن ترى طرفة تعـ ـجب منها مليحة مستفاده
فادع بى - لاعدمت تقويم مثلى - وتفطن لموضع السجاده
تر أثراً من الصلاة بوجهى توقن النفس انها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها بعدها للشهاده

ومثل هذه فى براعة الظرف وقدرة الفكاهة أبيات لاتملك نفسك معها من الضحك ، يهدد فيها ابليس ان لم يعنه على وصال حبيبته بالتزامه التقى وطاعة الله :

دعوت ابليس ثم قلت له فى خلوة والدموع تنحدر :
أما ترى كيف قد بليت ، وقد أقرح جفنى البكاء والسهر ؟

إن انت لم تلق لى المودة فى صـدر حبيبى ، وانت مقتدر
لا قلت شعراً ، ولا سمعت غناء ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن أدرسه أروح فى درسـه وابتكر
وألزم الصوم والصلاة ، ولا أزال دهرى بالخير أأتمر
فما مضت بعد ذاك ثالثـة حتى أتانى الحبيب يعتـذر

غير أن لابى نواس غير هذا مجوناً بارداً غثاً يخرج عن حد العقل والادب نضرب هنا عنه صفحاً

وبعد . فهذه حياة اللهو التى عاشها نديم الامين وشاعر البلاد فى عصر زاهر من عصور الدولة العباسية

بين نديم الامين ونديم شارل الثانى

ومن عجائب الاتفاق أن يحيا هذه الحياة بعينها ، شاعر فى القرن السابع عشر من الميلاد ، ينزع بالشبه اليه فى مجونه وخلاعته ، وفى منادمته لشارل الثانى ملك الانجليز بعد عودة الملكية

وهذه الحقبة من تاريخ الانجليز قريبة الشبه جدا بالحياة الاجتماعية العباسية فى الآونة التى تقدمت بالقارىء صفتها . فكان التفكير الغالب هو الشك ، وكانت الدنيا وليمة ممدودة للحواس . ومن لم يذهب فى هذا الزمن أو ذاك مذهب أهله كان موضع النكير والسخر . فهو فى نظر الحضارة العباسية والشعر النواسى لما يزل على بداوة الاعراب الاجلاف ، وهو فى نظر أنصار عودة الملكية من الانجليز لذلك العهد خالفة من مخلفات أهل الجمود والتزمت من المتعصبة البيوريتان

وهذا الضريب الذى نشير اليه ، والذى كأنما شق وأبو نواس من نبعة واحدة ، هو الشاعر الانجليزى « جون ويلموت ارل اوف روتشستر » وقد كان منذ صباه الاول متوقدا ذكى الفؤاد شديد الكلف بالادب عاكفا على درسه وتحصيله حتى تخرج فيه من جامعة اكسفورد وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره . وعلى أثر تخرجه سافر يصحبه مؤدب الى فرنسا وايطاليا . وبعد سنين أربع قفل راجعاً . ولم يلبث أن سلك سبيله تواً الى بلاط شارل الثانى حيث كان له من مقتبل شبابه وجمال طلعته ولطف محاضرته وبادرته خير شفيع وكفيل بحسن القبول . واشترك متطوعا فى حملة بحرية كانت موجهة الى هولندة ، فلم يك فى ميدان الشجاعة أقل سبقا وتبريزا منه فى ميادين الفجور والخلاعة ، وأحبه شارل الثانى حباً جماً وقد ساهم فى معظم وقائع الملك الغرامية وما أكثرها ! فبات نديمه المقرب وصاحب مقاصيره . ولم تقف غوايات روتشستر عند حد ، فقارف من المخزيات شرها وتمرغ فى حمأ مسنون من الفجور بأخس الوانه . وقد بدا له أن يخطف فتاة وارثة من أغنى الفتيات ضياعا وابرعهن جمالا . فلما لم يلق طلبه القبول اختطفها

واعتقل من أجل ذلك زمنا فى سجن البرج . على انه أخلى سبيله بعدها وتم له الزواج منها . وكان الشعراء فى زمنه يتقربون اليه ويهدونه شعرهم وهو يصطنعهم ويشملهم برعايته . ولكنه اذا نقم على أحد امرأ فان خطبه عسير . فانه ليتربص به كل دائرة ويعترضه فى كل لفتة ليناله بالاذاة ويصب عليه البلاء . وقد دفع ذات مرة عصبة من الاشرار فخرجوا على الشاعر (دريدن) فى درب من دروب لندن وأوجعوه ضربا . ولم يبال روتشستر معرة هذا الاعتداء بدليل اشارته اليه فى احدى أهاجيه . ثم انه كان معنيا بالمسرح ، واليه يرجع الفضل فى تمثيل مسرحيات عدة لشعراء من المغمورين ، وفى اظهار ممثلة شهيرة كانت قبل ذلك بائعة برتقال بباب المسرح الملكى ، فاصبحت بعدها عشيقة الملك الذى أعجبه منها فوق كل شىء مجونها . فقد كانت (نل جوين) شابة هوجاء مفتونة ، وجريئة متهتكة ، تمزح وتغنى وترقص وتتقن عملها كعشيقة . ولم يظهر فى بلاط ملكى عشيقة أشد منها استهتارا وشططا

والى هذه الاباحية فى صفات روتشستر الخلقية ، صفات ادبية ممتازة ، على انها مسبوكة من معدنه ومطبوعة بطابع خلقه . كانت له على النظم ملكة مؤاتية وقريحة سمحة ، وكان على مجونه له أويقات من فيض الحنان تتفجر عن قصائد رقيقة فى الغزل . إلا أن قوته ومقدرته لا تظهران فى فن من فنون الشعر ظهورهما فى مطاعنه العنيفة وقوارصه المقذعة . على أن فى قصيدته « هجاء البشر » نقدا لمعايير الخلق والادب يعلو على الحزازة الشخصية ويدل على الفكر القوى والحكم النافذ دون أن تشوبها شائبة من هذا التجريد الشاحب المبتذل المألوف فى قصائد العبر والمواعظ . وللاسف ليست كذلك سائر أهاجيه ، فانها ـ كما قلنا ـ شديدة القذع والرفث ولم تسلم منها عشيقات الملك ولا الملك نفسه . ولا شك أن هذا الخطل يذكرنا باهاجى أبى نواس للامين . ولقد ظهرت حملة بذيئة على الملك فى قالب رواية مسرحية شعرية بعنوان « سدوم أرض قوم لوط » . والشواهد والقرائن كلها مجمعة على انها من وضع روتشستر على الرغم من انكاره لها . ومع هذا الذى فى شعر الشاعر الانجليزى من العنف والفحش ، فان ما فيه ـ وهو مثل الذى فى شعر النواسى ـ من ميزة النسق غير المتكلف ، ورشاقة اللفظ المتخير ، يجعل له قيمة فنية باقية على الدهر

وتمام العجب فى اتفاق حياة هذين الرجلين انهما ـ على مايؤكد بعض الرواة ـ ندما فى آخر أيامهما على ما اجترحاه من المعاصى ، ورجعا الى الله وأنابا وماتا على التوبة والايمان موتة الصالحين

لهف نفسى على ليالٍ وأيا م تجاوزتهن لعبـا ولهوا
قد اسأنا كل الاساءة فاللـ ـهم صفحاً عنا وغفراً وعفوا

عبد الرحمن صدقى

الجوانب الجدية في شعر أبي نواس

العبقريون جدهم جد وهزلهم جد

بقلم الدكتور زكي مبارك

«.. كان ابو نواس أيها القراء جادا في كل شيء ، جادا في الجد ، جادا في المجون . اما جده فليس بشيء لانه لن يستطيع ان يقف في صفوف الجادين من معاصريه . لكنه كان في هزله فارسا لا يشق له غبار ـ كان جادا في هزله كل الجد لانه لم يكن يعبث ..»

سيطلع قراء الهلال على جوانب من مجون أبي نواس . فليعرفوا أيضاً أن أبا نواس كان من أقطاب الجد الصراح ، والفرق بين الجد والمجون ليس بعيداً كما يتوهم الاكثرون ، فالحياة جدها جد وهزلها جد ، والفرق بين اللفظتين يرجع إلى تمثيل حالتين من حالات الحياة ، ونحن في الدنيا مسخرون لالوان من الطبائع فيها السواد والبياض والحلاوة والمرارة والجد والمجون . ونحن لا نعبث حين نشاء ، وانما نعبث حين تشاء قوانين الوجود . فأبو نواس العابث الماجن هو شخص يجد أعنف الجد في تحقيق ما أرادت الحياة أن يكون ، هو شخص مسكين وقفته الحياة في صف من صفوف الحرب ثم قالت له : دافع أيها الجندي الامين عن « ثغر » المجون

وقد عاش أبو نواس جندياً يحارب حتى سقط في الميدان ، ميدان الفضيحة لاميدان الشرف ، لان « الثغر » الذي وقف يحميه لا يسمي صرعاه بالشهداء ، فهذا المسكين الذي ضحى بحياته في سبيل الحياة لم يظفر بشيء من المجد ، ولا بنصيب الجندي المجهول ، وانما ظفر بنصيب الجندي « المتعوس » وللحياة قوانين منها قانون اسمه قانون الحرمان ، وبفضل هذا القانون خلد ابو نواس

وكان أبو نواس في موقفه الحرج من أشجع الشجعان ، فالدعوة إلى الفضيلة يستطيعها كل مخلوق ، والتخلق بأخلاق الشرفاء لا يحتاج إلا الى قسط ضئيل من الرياء . أما الدعوة الى المجون فتحتاج الى جرأة فاتكة لا يتسلح بها إلا من أمدته الحياة بمدد من القوة النفسية

وكذلك كان أبو نواس ، كان مثال الشجاعة والاقدام والجرأة في الدفاع عن « الثغر » المهدد بغارات الانقياء ، هو رجل وقفته الحياة للدفاع عن قانون منبوذ لا يجهر أحد بالدعوة اليه ، ولا يستطيع مخلوق أن يصرح بأنه قانون، هو الافعوان الذي يتواصى الناس بقتله والاجهاز عليه ، هو

الشيطان الذى أمر المؤمنون بلعنه فى أعقاب الصلوات ، هو الفاكهة المحرمة التى نهى عنها آدم وحواء

جد ابى نواس فى هزله

كان أبو نواس أيها القراء جاداً فى كل شىء ، جاداً فى الجد ، جاداً فى المجون . أما جده فليس بشىء لانه لن يستطيع أن يقف فى صفوف الجادين من معاصريه ، لكنه كان فى هزله فارساً لا يشق له غبار ، كان جاداً فى هزله كل الجد لانه لم يكن يعبث وانما كان يدافع عن مذهب ، ومذهبه مذهب خاطىء يمجه العقلاء ، ولكنه مذهب كان له فى نفس أبى نواس قواعد وأصول . والحياة لم تكن تعبث حين أفسحت المجال للافاعى والصلال ، وانما كانت لها غاية سيعرفها الناس بعد حين . ومذهب أبى نواس هو من الضلالات فى العرف والاصطلاح ولكن الحياة فرضته على الشاعر وقضت عليه بالدفاع عن ذلك المشرع الموبوء ، فلا تلوموه ولكن لوموا الطبيعة الساخرة التى جعلت المجون من ألوان الحياة — أترونني أدافع عن ابى نواس ؟ وعمن يدافع المحامون ؟ أيدافعون عن الاتقياء الصالحين الذين تلثم أيديهم فى ساحات القضاء ؟

ان من الحذلقة ومن الرياء الممقوت أن تتكلف الفضيلة بالطعن فى أبى نواس. هو رجل قالت له الحياة كن فكان، وهو لايسأل عما صنع الا فى رأى من يتوهمون أننا نملك تلوين الوجود كما نشاء . ومن نحن ؟ من نحن ومن أنتم أيها الناس ؟ نحن وأنتم ذرات صغيرة جداً فى هذا الوجود الهائل الذى يبتعد فيه بعض الكواكب عن بعض بمسافات يقطعها القطار السريع فى مئات السنين أو ألوف السنين . ما نحن وانتم إلا فراش يحوم حول نور الوجود فنحترق بالالوف والملايين ويبقى الوجود

أترون الفراش يهزل حين يحوم حول النور ليحترق ؟ انه يجد ولكنكم لاتعلمون. وكذلك كان أبو نواس يجد فى هزله كل الجد ، ولا يراه لاعباً إلا من يقيس الحقائق الحيوية بمقاييس الجهلاء

لماذا كان يهزل ؟

قد يقول ناس من خلق الله : أمن اجل هذه الفلسفة المضللة تكتب هذا المقال ؟

ان قالوا ذلك فانى انقلهم إلى بحث جديد : لماذا كان يهزل أبو نواس ؟

انه كان يهزل بفضل ماعانى من قسوة الجد فهو فى هزله يتمثل الجد بصورة مخيفة

كان أبو نواس من كبار العلماء ومن كبار الاذكياء وكان يتمنى أن يظفر بمكان مرموق فى دولة هرون الرشيد ،ولكن الحاقدين من معاصريه طوقوه بألوان من النمائم والوشايات وحالوا بينه وبين ما كان يشتهى من منازل المجد فأقبل على الصهباء يبثها شكواه من الزمن الخادع والرفاق اللئام .

ومازال يمعن فى لهوه ومجونه حتى صح له أن يقول :

صيرتنى الوشاة نصب المشيريـ ـن وأحدوثة بكل مكان

لم أجد خاليين فى السر إلا قلت مايخلوان الا بشانى

وهذه الوسوسة هى النصيب الذى ظفر به أبو نواس فى عصره وهو الرجل الذى وصف بأنه كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب والذى كان يود أبويوسف الفقيه لو أخذ عنه أصول التشريع

قسوة الجد هي التى نقلت أبا نواس من حال الى حال . وأنتم تعلمون أن المجد فى عصر ابى نواس كان ينحصر بالنسبة اليه فى غاية واحدة هي الظفر بمنصب القضاء ، وكان أبو نواس أعد نفسه لهذه الغاية التى يتسامى اليها العلماء ، ولكن قيل فيه انه شاعر يحسن وصف الصهباء وتلك حال تنافى وقار القضاء . وكذلك طرد الرجل من حظيرة المجد المرموق فتحول الى ماتعرفون . ابحثوا فى جميع بقاع الارض فلن تجدوا العبث القوى الا عند المنهزمين من أصحاب العقول . ان الهزيمة هى التى تسن قواعد العبث والمجون ، أما النصر فهو يغرى بالتقى والصلاح ، والتقى والصلاح لفظان لا معنى لهما ولا مدلول فى أذهان اليائسين والمنهزمين من كبار الرجال

هل كان رجلا كبيرا

قد تقولون : وهل كان أبو نواس رجلا كبيراً ؟

ونجيب بأنه كان رجلا كبيراً جداً ولولا عظمة روحه ما استطاع أن يفرض ضلاله على الناس مئات السنين . وليس من القليل أن يكون الرجل اماماً فى الغواية والضلال يترسم الناس خطواته من جيل الى جيل . ولكن أين الشاهد على صحة ما نقول فى شعر أبى نواس ؟ اسمعوا ما يقول :

غدوت على اللذات منهتك الستر ... وأفضت بنات السر منى الى الجهر
وهان على الناس فيما أريده ... بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى ... فبادرت لذاتى مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن ... تحير فى تفضيله فطن الفكر
مدام ربت فى حجر نوح يديرها ... على ثقيل الردف مضطمر الخصر
صحيح مريض الجفن مدن مباعد ... يميت ويحيي بالوصال وبالهجر
كأن ضياء الشمس نيط بوجهه ... وبدر الدجى بين الترائب والنحر
اذا مابدت ازرار جيب قميصه ... تطلع منها صورة القمر البدر
فاحسن من ركض الى حومة الوغى ... وأحسن عندى من خروج الى النحر
فلا خير فى قوم تدور عليهمو ... كؤوس المنايا بالمثقفة السمر
تحياتهم فى كل يوم وليلة ... ظبا المشرفيات المزيرة للقبر

فماذا ترون فى هذه القطعة ؟ أن الشاعر يحدثكم أنه يغدو إلى اللذات وهو منهتك الستر مفضوح الاسرار ويحدثكم بان الناس هانوا عليه فلم يعد يبالى لوم اللائمين وعذل الناصحين . ولكم أن

تسألوا : متى يستهين الرجل بأقدار الناس ولوم الناس ؟ انه لا يفعل ذلك الاحين ييأس من انصاف الناس. وكان أبو نواس فيما يظهر قد يئس من عدل معاصريه أقبح الياس فلم يعد يهمه رضا الراضين وسخط الساخطين . وهذه الحالة النفسية هى التى أوحت اليه أجمل بيت فى الشعر العربى ، هى التى قذفت إلى روحه هذا البيت المتفرد بالروعة والجلال :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وما هو ذلك الشجر ؟ أهو الرفاق والاخدان ؟ أم هو الخليفة هرون الرشيد ؟ لم يحدثنا التاريخ الادبى عن « الشجر » الذى ذاق أبو نواس مرارة ثمره فزهد فى ذود الطير عنه ، لم يحدثنا التاريخ عن تلك الشجرة الملعونة التى نقلت أبا نواس من الهدى إلى الضلال ، ولكننا مع ذلك نعرف ما يريد أو بعض مايريد ، فذلك رجل أضفى على معاصريه ثياب الرفق فألقوا عليه أشواك العقوق

ارتياب ابى نواس

ثم ماذا ؟ كان أبو نواس فيما يظهر كثير الارتياب ، وأغلب الظن أنه كان لا يؤمن بالمعاد ، وإلا فكيف ساغ له أن يقول :

رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

ولو كان الرجل يؤمن بأن الجنة تنتظره بما يشاء من الحور والولدان وأنهار الصهباء لاقلع عن الغواية فى سبيل ما يرجوه من نعيم الفراديس

وهل تأملتم الابيات الاخيرة فى هذه القطعة الاثيمة ؟ ان الرجل يسخر من المجد العسكرى كل السخرية ، هو لا يهمه أن يتقدم إلى صفوف القتال ، ولا يشوقه أن يتلقى تحية المشرفيات ، وفى سبيل من يقاتل ويستميت ؟ لقد تساقطت آماله ورقة ورقة ولم يبق أمامه الا أن يدوس على صحائف المجد مبددة فى سهول الخريف — أنا أرجح أن تكون هذه القطعة قيلت فى عشية من عشيات الحرب ، وأوقن بان الرجل قالها فى السخرية من المجاهدين

قلت لكم إن المجون كانت له فى نفس أبى نواس قواعد وأصول ، فاعرفوا الآن أن الرجل كان يؤمن بآداب الندماء وكان يزهو بنفسه فيقول :

انى وإن كنت ماجنا خرقا لا يخطر النسك لى على بال
لذو حياء وذو محافظة مبتاع حمد الرجال بالغالى
ما دنس المال عرض ذى شرف فان عرضى يصان بالمال

وهذه الابيات الجدية وقعت فى مطلع قصيدة خمرية

وكان أبو نواس يؤمن بانه أشرف نديم وأظرف نديم ويقول :

فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه اذن لاصطفانى دون كل نديم

أترون هذا من كلام الهازلين ؟ . . وكان يوقن بانه بصير بمقاتل الاشياء . ويقول :

وانى لآتى الامر من حيث يتقى   وتعلم قوسى حين أنزع من أرمى

وكان أبو نواس فى صحواته يحقد على الناس ويرى من الضياع أن يحبر فيهم قصائد المديح ويرى الخير فى ترجية العمر بالغزل والدعابة والمجون . ويقول :

يا مادح القوم اللئـام   وطالباً رفـد الشحاح
اشغل قريضك بالنسيب   وبالفـكاهـة والمزاح
حـدثت وجوه ليس تأ   لم غير أطراف الرماح
وأكف قوم ليس ينبط   ماءها إلا المناحى
ما شئت من مال حمى   يأوى الى عرض مباح

حظه المغبون

وكا أبو نواس فى غفوات سكره وغفلات صباه يصحو أحيانا فيتذكر حظه المغبون فى دنياه، ألم تقرأوا قصيدة «خيمة الناطور» ان كنتم نسيتم فانا أذكركم . هى القصيدة التى يقول فيها بعد ابيات :

وأصبحت ألحى السكر والسكر محسن   ألا رب احســان على ثقيل
فاعطيت من أهوى الحديث كما بدا   وذللت صعبا كان غير ذلول
فغنى وقــد وسدت يسراى خده   ألا ربمـا طالبت غير منيل
كفى حزنا أن الجواد مقتر   عليــه ولا معروف عنــد بخيل
ســابغى الغنى إما جليس خليفة   يقوم سواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه   اذا نوه الزحفان باسم قتيــل
لنخمس مال الله من كل فاجر   أخى بطنة للطيبات اكول
ألم تر أن المــال عون على التقى   وليس جواد معــدم كبخيل

فماذا ترون فى هذه الابيات ؟ لقد قالها ذلك المفتون وهو سكران ، فافصحت عن ضميره كل الافصاح ،وماذا يريد أن يقول ؟ انه يحزن لمصير أهل الجود بين اللئام من أهل البخل ، ويقسم لينالن الغنى والثراء . ولكن كيف يثرى ذلك الصعلوك ؟ انه بين اثنتين : اما أن يجالس الخليفة واما أن يقطع الطريق .وهو يحدثنا أن له عصابة من الفتيان الجرآء القلوب الذين لايفزعون حين ينوه الزاحفون باخبار المصروعين فى القتال . ومن الذين يعاديهـم ذلك الفاتك ؟ انه يعادي الفجرة اصحاب البطون . ثم يقول :

ألم تر أن المال عون على التقى   وليس جواد معدم كبخيل

والتقى فى ذهن ابى نواس له معنى لا يعرفه الزاهدون ، التقي عند أبى نواس هو الاريحية فى

الافضال على الندماء . وكان الرجل يتمنى أن يكون موئلا يلوذ به أصحاب الارواح والاذواق والقلوب

ان هذه الوثبة من أبى نواس وثبة اشتراكية لا يقدم عليها الشاعر وهو مازح ، انما يقدم عليها وهو ينوى الجد الصراح . . وأعيذكم أن تظنوا انه كان يلقى الكلام على عواهنه ، هيهات .فهو فيما اعتقد كان يحارب ناساً امتلأت بطونهم بالسحت حين عرفوا كيف ينفع النفاق

ولايبعد عندى أن يكون أبو نواس يعنى النساك من أهل زمانه ، فقد فاض شعره بالحديث عن النسك والسخرية من الناسكين. والتنسك كما تعلمون كان فى بعض أحواله من وسائل الربح والثروة والجاه . ومثل أبى نواس فى صراحته لا يصلح لا كتساب المال عن ذلك الوجه الرقيع

جده فى زهدياته وخمرياته

لا تنتظروا أن أحدثكم عن زهديات أبى نواس ، فتلكم قصائد ومقطوعات قالها الرجل بعد أن عجز عن الجد وعن المجون ، والوقار من العاجزين يشبه أدب العبيد ولا يوضع فى الميزان ، وانما يجب أن ندقق النظر فيما اصطنع أبو نواس من المذاهب الجدية وهو فى عنفوان الفتوة ، وأ كاد أجزم بأن الحاحه فى وصف الصهباء كان صورة من صور الجد المرهق . فالرجل كان يتغنى بالخمر فى أمة تسميها أم الخبائث . وكان يتغنى بالجمال الممنوع فى ظل هرون الرشيد ، وهو خليفة كان يحب أن يقال فيه انه يغزو عاماً ويحج عاما. وحرص الخلفاء على الوقار حرص شديد وان كان يتفق أحياناً أن يكون من الادب المصنوع

فكيف تعللون اسراف أبى نواس فى وصف الشمول ؟ أترون ذلك كله من المجون ؟ قولوا ما شئتم . أما أنا فأعتقد أن الرجل كان يصدر فى ذلك عن وجدان ويبعد عندى أن يكون شغفه بوصف الخمر من أعمال العابثين

وأسارع فأقرر أن أبا نواس كان سيء السيرة ولكن لا إلى الحد الذى يصوره المأثور من أخباره الادبية، فانى أوقن بأن انحيازه إلى الامين كان السبب فيما ساد من أخباره السيئات. وأنتم تعلمون أن الامين انهزم شر هزيمة ، وكانت هزيمته شفاء لصدور الحزب الغالب حزب المأمون ، وكان لابد لانصار المأمون أن يفهموا جمهور المسلمين أنه لم يغدر بأخيه وانما قتله فى سبيل الشرع والدين ، وما كان ذلك يتم لهم الا بتسويد صفحات من صاحبوا الامين، فكان أبو نواس ضحية الافك السياسى القذر الذى اصطنعه أنصار المأمون

أما بعد فهذا مقال أردت به وجه الحق ، أردت به انصاف شـــاعر ضمخ لغة العرب بانفاسه الشعرية ، فان اكن أصبت فذلك ما أرجوه ، وان اكن اخطأت فحسبي من الشرف أنى تورعت عن الطعن فى شاعر باسم الفضيلة والدين

زكى مبارك

الجواري في عصر أبي نواس
وأثرهن في الأدب والمجتمع

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عصر أبي نواس ـ وهو أواخر القرن الثانى من الهجرة ـ عصر الرشيد ، ويكفى أن نقول عصر الرشيد لنذكر ما بلغته الدولة العباسية فى تلك الفترة القصيرة من القوة ، والروعة والبهاء ، وما انتهى اليه المجتمع البغدادى يومئذ من ألوان النعماء والبذخ والترف

وكان الأدب يومئذ فى عنفوانه ، والأدب مرآة العصر ، وكان الشعر بالأخص ترجمانا صادقاً لذلك المجتمع الباهر المترف ، يبدو فى الوانه المزهرة القاتمة معا . ذلك أن المجتمع العباسى كان يجمع الى أسباب البهاء والروعة الظاهرة ، كثيرا من عوامل الفساد والانحلال الخفية التى صدعت من صرح الدولة العباسية فيما بعد ، ثم حملتها الى قدرها المحتوم ، فكما انا نرى الشعر فى هذا العصر يسمو بالجمال والخيال والفن الى ذرى الابداع والافتنان ، نراه أيضاً ينحدر الى الوان مثيرة من الرذيلة والانحلال والاغراء ، وربما لم يجتمع فى عصر من عصور الأدب العربى مثل ما اجتمع فى هذه الفترة القصيرة من كبار الشعراء الذين جمعوا فى شعرهم بين مظاهر السمو والانحلال معا . فكانت الى جانب أبى نواس ، مسلم بن الوليد وابو العتاهية والحسين ابن الضحاك وغيرهم من فحول الشعراء الغزليين والغنائيين

وكان الجوارى عنصرا من أهم وأسطع عناصر المجتمع الرفيع يومئذ ، ولنذكر أولا أن كثيرا من الخلفاء العباسيين وفى مقدمتهم الرشيد نفسه ، وكذلك المأمون والمعتصم والواثق والمستعين ، كانوا من أبناء الجوارى ، وكان اقتناء الجوارى البارعات فى الحسن أو الغناء أو الأدب عنوان النعماء والبذخ ، تغص بهن قصور الخلفاء والوزراء والسادة ، ويؤتى بهن من مختلف الأمم ، ويلقن مختلف الثقافات الأدبية والفنية ، وتبلغ أثمانهن عشرات الألوف احيانا ، ويتنافس فى اقتنائهن الأكابر ، ويشاد بخواصهن وخلالهن فى كل مجتمع وناد

وكان هذا المزيج المتباين الذى تكونه جنسيات وخلال وثقافات مختلفة ، قوة اجتماعية خطيرة لها أثرها القوى فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وفى تطور سير المجتمع الرفيع ، وتطور خلاله وأذواقه ، بل كان لها أثرها العميق فى سير التفكير والآداب والفنون كما سنرى

كان مجتمع الجوارى هو العنصر المثقف بين نساء العصر ، ذلك لأن الجوارى كن سلعة ووسيلة للكسب ، وكن يهذبن ويثقفن ويلقن مختلف الفنون والمهن ، فكانت هذه الثقافة

الاجتماعية الى جانب الشباب والجمال عاملا من أهم العوامل فى رفع الأثمان وتحقيق المغانم، وكان الجوارى دون الحرائر. يتمتعن بحرية التنقل والسفور، والاتصال بالمجتمع، وتذوق الحياة الاجتماعية العلنية، فى القصور والابهاء والنوادي، وبذا كن عنصرا حيا يؤثر باستمرار فى تطور المجتمع والحياة الاجتماعية

ونستطيع أن نتصور ماكان لمثل هذا العنصر الذكى الرشيق، أعنى الجوارى، من أثر فى التفكير والأدب، إذ من كان شهود هذا المجتمع الأنيق من الرجال غير الشعراء والادباء والمثقفين من الأكابر والسادة؟ وهؤلاء قادة التفكير فى المجتمع. ولقد كان الأدب العباسى يومئذ فى عنفوانه كما قدمنا، وكان أكابر الشعراء يلازمون هذا المجتمع الساحر البهيج، يستوحونه فيوحى اليهم بروائع المعانى والفكر، وكان أبو نواس وزملاؤه من أكابر الشعراء الغنائيين، هم الناظمون القصائد والمقطوعات الغنائية البديعة التى يغنيها أكابر القيان والتى كانت تملأ مجتمعات العصر مرحا وطربا

بل لقد كان لهؤلاء الجوارى البارعات أدب خاص نشأ على أيديهن وفى بيئتهن. فقد رأيت أن التثقف والتأدب كانا من خلال الجوارى البارعات، وكان هذا الذوق الادبى الذى يزينه الجمال والفن والسحر النسوى، تذكيه وتصقله خواص المجتمع الأنيق الباهر الذى يسطع فيه. وقد نبغ بعض أولئك الجوارى الساحرات فى الأدب والنظم نبوغا يذكر، ومن هؤلاء عريب جارية المأمون ثم جارية أخيه المعتصم ثم الواثق، وكانت من أعظم جوارى العصر جمالا وثقافة وأدبا، ومؤنسة جارية المأمون أيضا، وعنان جارية الناطفى، ومتيم الهاشمية جارية على بن هشام، ودنانير جارية يحيى البرمكى، ويفرد لنا صاحب الاغانى لأخبار أولئك الجوارى الأديبات فصولا طويلة ويورد لنا كثيراً من نظمهن. وكان ابو نواس يهوى جارية أديبة لبعض الأكابر تدعى «جنان»، وكان لها أثر كبير فى شعره، وفيها نظم كثيراً من رائع مقطوعاته

بيد أنه يجب أن نلاحظ أن أدب الجوارى فى هذا العصر قد اتخذ لونا خاصا: فهو أدب مرح ومسرة وطرب، يميل الى المجون والدعابة، ولا غرو فقد نشأ فى مجتمعات السرور والانس، تغذيه أكواب الراح، ونشوة الشراب، وتذكيه الاهواء والعواطف المثيرة، وقد نشأ ترجماناً لجوى الحب ونعيم الوصل وشجن الفراق. ويقدم الينا صاحب العقد الفريد نماذج ممتعة من هذا الادب الطروب الماجن الذى برعت فيه الجوارى والقيان فى هذا العصر، نكتفى بالاحالة عليها

ونجد أثر هذا الروح المرح الماجن الذى بثه الجوارى فى مجتمع العصر، بارزا فى أدب العصر نظمه ونثره، وكما أن هذه البيئة الأنيقة الساحرة - أعنى بيئة الجوارى - قد أذكت بظرفها وسحرها ورقة شمائلها فى الشعر عبارة الجمال، وسمو الخيال، وروعة الوصف والغزل، واستوحى

منها أبو نواس وزملاؤه كثيراً من المشاعر والمعانى السامية ، فكذلك كان لهذه البيئة المرحة الطروب التى تبدو فيها الحياة كأنها متاع دائم ، أثرها الواضح فى تطور الشعر يومئذ ، ذلك أن مجتمع الجوارى كان بطبيعته يتمتع بكثير من المواهب والخلال الفنية والغنائية والموسيقية ، فكان لهذه المواهب والخلال أثرها فى أذواق الشعراء ، وهم بطانة هذا المجتمع الفنى ، فا كثروا من القصائد والمقطوعات الغنائية كذلك كان مجتمع الجوارى تغلب عليه الوان المجون والخلاعة

ولقد كان مجتمع الجوارى برغم اثواب الثقافة والبهاء والسحر التى يتشح بها ، يحمل فى ثنياته كثيرا من عناصر الرذيلة والانحلال ، ذلك أن مثل هذا المجتمع لم يكن بطبيعة العناصر التى يتألف منها ، والاهواء التى يجنح اليها ، والغايات التى يتحراها ، فى مستوى رفيع من الوجهة الاخلاقية . ألم يكن الجوارى فى الواقع طبقة من انصاف الحرائر ، يرى فيهن الخلفاء والسادة والادباء والشعراء مخلوقات ممتعة مهمتها الاولى أن تحقق ملاذ الحس والعقل معا ؟ ولقد كان القصف والتهتك والخلاعة من خواص هذه الطبقة التى جمعت اخلاط الجنسيات والامم ، وكتب عليها أن تجوز غمار الشرق ، وان تجوس مختلف المجتمعات والدور متنقلة بين مختلف الملاك ، وأن تخضع لوضيع الاهواء والشهوات حيثما حلت ، وهذه ظروف واعتبارات لا يمكن أن تتفق مع مقتضيات الحياء والحشمة والعفاف التى يتمتع بها مجتمع الحرائر ، ولقد كان القيان يعتبرن برغم مواهبهن الفنية طبقة وضيعة خطرة على الخلق الفاضل

وإذ كان الادب ترجمان الحياة الاجتماعية ، وترجمان مشاعرها وعواطفها ، فانا نستطيع أن نقول ان الروح الادبية التى سرت الى مجتمع الجوارى والقيان فى العصر الذى نتحدث عنه ، أعنى أواخر القرن الثانى ، كانت روحا مادية وروح انحطاط ورذيلة . ولقد تأثر الادب العباسى فى ذلك العصر بتلك الروح أيما تأثر

بيد أنه يجب ألا ننسى من جهة أخرى ان تلك الروح الحرة المرحة الساخرة التى سادت أدب الجوارى هى سبب ما نلحظه فى هذا الادب من رقة وخفة روح وسحر ، كذلك يجب ألا ننسى أن هذه الخلال الرقيقة الساحرة التى امتاز بها مجتمع الجوارى ، كانت من الناحية الاخرى عاملا فى اذكاء الروح الشعرى ، وصقل مثل الجمال والظرف ، ورفع معيار الاناقة والتأدب والذوق الحسن ، وبث الخلال والشمائل الرقيقة ، ورفع معيار الحياة الاجتماعية بوجه عام ، ولقد كان بين أولئك الجوارى الرائعات من تذكرنا خلالها بارق مايمتاز به المجتمع الانيق فى عصرنا

والخلاصة أن هذا المجتمع الرشيق الساحر - مجتمع الجوارى - كانت له خلاله الباهرة القاتمة معا ، وكانت له فضائله ورذائله . وكان له أدبه الخاص . وكان له أثره القوى فى تطور المجتمع ، وفى تطور التفكير والآداب

محمد عبد الله عنان

الفنون الاسلامية
في عصر ابي نواس

للدكتور زكي محمد حسن

امين دار الآثار العربية



مرآة من الحديد في عصر ابى نواس محفوظة بالقسم الاسلامي في متاحف برلين

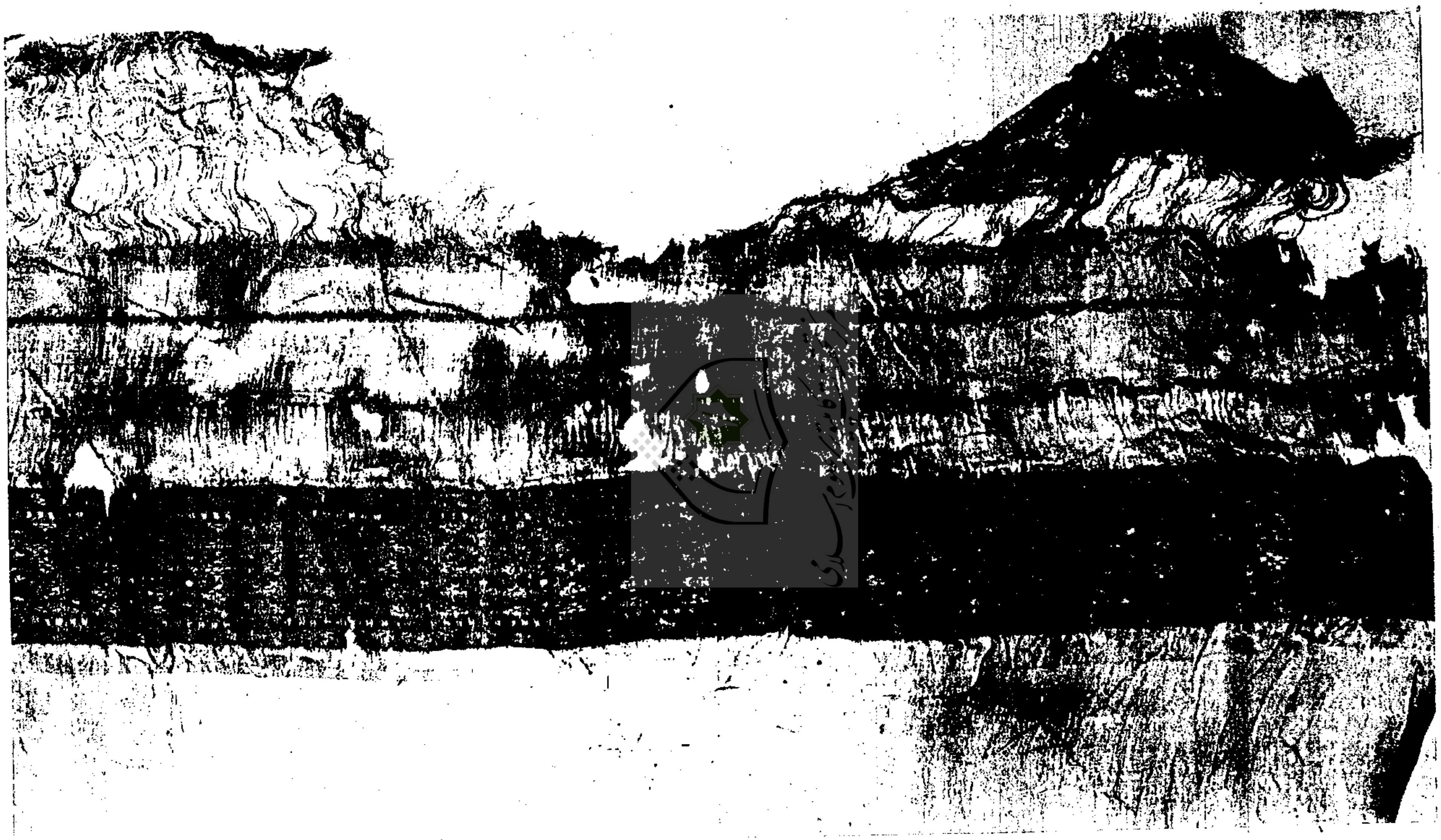
يروون ان الجاحظ كان يقول : ما أعرف لأبي نواس شعراً يفضل القصيدة التي مطلعها :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
بها أثر منهم جديد ودارس

وقد كنت منذ سنين خلت أقرأ هذه القصيدة وأقف منها عند الأبيات الآتية :

« أقمنا بها يوما ويوما وثالثا
ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الكأس في عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مهى تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

وكنت أحاول فهم هذه الابيات التي يستشهد بها الادباء على ميل أبي نواس إلى العجم وعلى تعاجمه في شعره ، وكنت شديد الاعجاب بوصف تلك الكأس المذهبة والصور التي رسمها الصناع في بلاد الفرس ، وكنت أتمثل الكأس وصورة كسرى مرقومة في أسفلها وقرارتها وصور البقر الوحشي في جوانبها يطارده الفرسان ويصيدونه ، كما كان يعجبني المعنى الجديد الذي أبدعه أبو نواس في البيت الاخير حين صور الخمر مصبوبة في الكأس الى حلوق الصور صرفا ، والماء مصبوبا في ١١



قطعة نسيج باسم الامين الخليفة العباسى . محفوظة بدار الآثار العربية

الخمر حتى يعلو مزجها رءوس الصور . كان ذلك كله دون ان أفكر فيما تشهد به هذه الابيات من ازدهار الفن وتقدم الصناعة في عصر أبي نواس

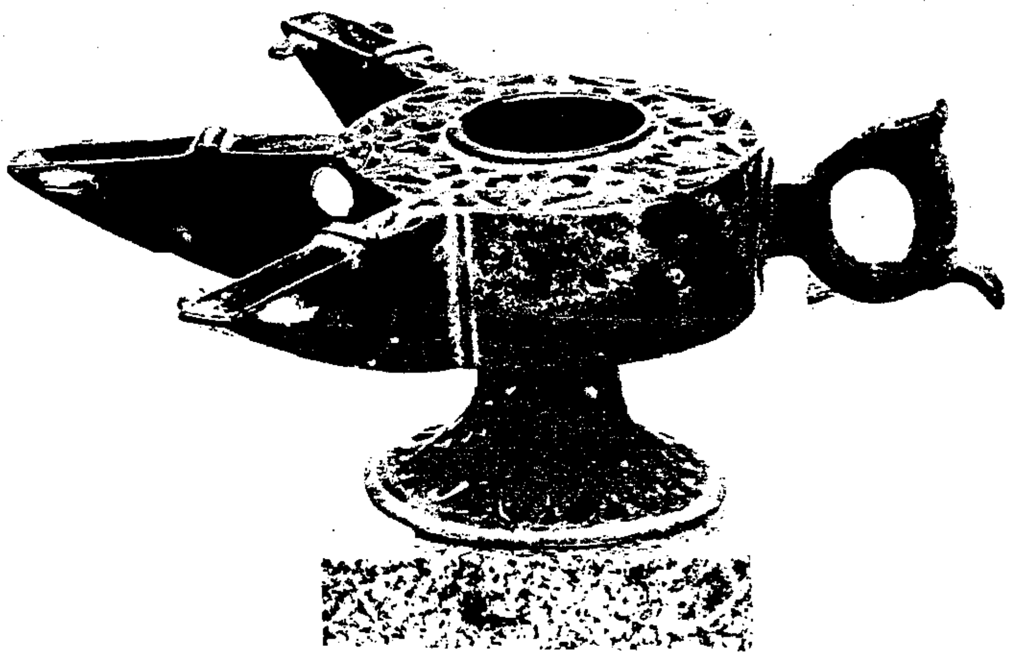
والواقع ان الابنية والتحف الاثرية التى وصلت الينا من العصر العباسى الاول نادرة جداً وان أكثر ما يعرفه علماء الآثار الاسلامية عن الفن الذي ازدهر في بلاد الجزيرة انما يرجع الى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادى أو الى انشاء مدينة سامرا سنة ٨٣٦ حين أكثر المعتصم من شراء الجند الاتراك وأصبح من الصعب التوفيق بينهم وبين سكان بغداد فثقل هذا على الخليفة وعزم على الخروج من بغداد والانتقال الى تلك العاصمة الجديدة على بعد مائة كيلو متر شمالى مدينة المنصور

ولما كان من تقاليد العمارة في بلاد الجزيرة وفي ايران ، البناء بالآجر فاننا لا نجد في هذين الاقليمين أبنية قديمة كالتى بناها الامويون في سورية ، بل اننا نستطيع القول بانه لم يصل الينا أى بناء او أنقاض بناء يمكن نسبته أو نسبتها الى عصر سابق لحكم الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١)

ولكننا نعلم من المصادر التاريخية والادبية ان الخليفة المنصور بدأ سنة ٧٦٢ (١٤٥ الهجرية) تشييد مدينة بغداد على الشاطىء الغربى لنهر دجلة وتم بناؤها في أربع سنوات بعد ان جمع لها الصناع والفعلة من الشام والموصل والكوفة وواسط وغيرها من الامصار ، ووضعت أسس المدينة على ان تكون مستديرة الشكل تمتد عمائرها حول قصر الخليفة والمسجد الجامع في وسطها ، وبنى لها سور داخلى وسور خارجى عظيم له أربعة أبراج مستديرة وله أربعة أبواب ، فكان القاصد اليها من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد اليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقادم من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقادم من البصرة واليمامة والبحرين وواسط والاهواز وفارس يدخل من باب البصرة . ويذكر ياقوت « ان المنصور بنى مدينته مدورة وجعل داره وجامعها فى وسطها ، وبنى القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوها ثمانين ذراعا وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح وكان السلطان إذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الاخبار بان خارجياً قد هجم من تلك الناحية » على ان ياقوتا ينسب هذا الحديث كله الى الخطيب أبي بكر البغدادي قائلا انه « من المستحيل والكذب الفاحش » وان « الملة الاسلامية تجل عن هذه الخرافات »

ومن الأخبار الشائعة التى يرويها ياقوت عن بغداد والتى تهم المشتغلين بدراسة الآثار الاسلامية أن المنصور أقام على باب خراسان ببغداد بابا جىء به من الشام من عمل الفراعنة ، وعلى باب الكوفة بابا جىء به من الكوفة من عمل خالد القسرى ، وعمل هو بابا لباب الشام وهو أضعفها ، وأنه مد قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، وجرهما الى بغداد فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج (الكلس غير المطفى) والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والارباض تجرى صيفا وشتاء

على أنه يظهر أن المنصور لم يطمئن كل الاطمئنان الى سكنى قلب المدينة فشيد لنفسه قصر الخلد



مصباح من البرونز في عصر ابى نواس محفوظ بالقسم الاسلامى في متحف برلين

خارج سور بغداد الذى كان يقوم بحذاء دجلة ، كما شيد بعد ذلك عدة عمائر لابنه المهدى وأهمها قصر الرصافة . وبلغت بغداد أوج عظمتها بعد وفاة المنصور وفي عهد خلفائه المهدى وهارون الرشيد والامين والمأمون . ونسج رجال البلاط وأفراد الاسرات الغنية على منوال الخلفاء فشيدوا العمائر الفاخرة في مدينة المنصور . ولما توفى هارون الرشيد ونشبت الحرب الاهلية بين الامين والمأمون حوصرت بغداد لاول مرة في تاريخها الطويل وأصاب عمائرها كثير من العطب بسبب القتال بين الأخوين المتنافسين ، بل ان جزءاً كبيراً من نصفها الشمالى كان مصيره التدمير وأحرقت أحياء كاملة من المدينة وأسر الأمين وقتل وحلت ببغداد كوارث تجد تفصيلها في تاريخ الطبرى

ومهما يكن من شيء فان مدينة بغداد الحالية ليس فيها أى أثر من المدينة القديمة وليس فيها أى أثر من بغداد في عصر هارون الرشيد والامين، ذلك العصر الذي رأى نبوغ أبي نواس ومجونه اذ ان ذلك كله خربه هولاكو سنة ١٢٥٨

وشيد المنصور كذلك مدينة جديدة بجوار مدينة الرقة على نهر الفرات وجعل تصميمها على شكل حدوة الفرس وأقام فيها هارون الرشيد من سنة ٧٩٦ الى سنة ٨٠٨ ولا تزال اجزاء من أسوارها ذات الابراج قائمة حتى الآن

ولا ريب ان انفصال الاندلس عن العالم الاسلامي الشرق وانتقال حاضرة الخلافة الى بلاد الجزيرة على مقربة من المدائن عاصمة الفرس صبغ الدولة الاسلامية والفنون الاسلامية بصبغة فارسية وانفصمت عرى الروابط التى جمعت في فجر الاسلام بين المدنية البيزنطية والعالم الغربى ، وحلت محلها علاقات جديدة بين المدنية والفنون الاسلامية وبين المدنية والاساليب الفارسية الساسانية التى كانت حية زاهرة في بلاد الجزيرة ، وذلك بتأثير عظماء الدولة من الفرس واصحاب النفوذ منهم فى بلاط الخليفة . ونحن نعرف ان الخلفاء لما شعروا شيئا فشيئا بخطر صبغ العالم الاسلامي بالصبغة

الايرانية البحتة عملوا على اتقائه باحاطة انفسهم بجند من الاتراك لم يلبث ان زاد نفوذهم وعلا شأنهم وكان من امرهم ما نعرف

وجملة القول ان المدن العباسية كبغداد والرقة ثم سامرا وكذلك ما بنى فيها او حولها من عمائر وقصور كانت كلها شرقية الصميم ايرانية الطراز كما كانت العمائر في بيت المقدس وفي دمشق متأثرة بالاساليب البيزنطية والغربية كل التأثر

وكان المسجد الجامع الذي شيده المنصور في بغداد مبنياً بالآجر ومكوناً من صحن مكشوف تحيط به أروقة من جوانبه الأربعة ، وفيه أعمدة وتيجان من الخشب ثم جعل له هارون الرشيد سوراً من الطوب الأحمر وكان فيه محراب من المرمر لا يزال أموى الطراز

ولكن انتقال السيادة إلى العراق أدى إلى تغيير كبير في أساليب العمارة فانتقل البناءون إلى استعمال الآجر بدلا من الحجر وإلى بناء القوائم عوضاً عن الأعمدة وإن كانوا فى أكثر الأحيان عملوا على تجميل تلك القوائم بأعمدة مندمجة في أركانها

أما الفنون الفرعية أو الصناعية فلا ريب أنها كانت زاهرة فى العصر العباسي الأول اذا حكمنا بما نقرأه عن ترف العيش في بغداد في عصر هارون الرشيد وبما نجده من اشارات متعددة في حكايات « ألف ليلة وليلة » وبما وصل الينا من تحف أثرية نادرة

فصناعة الأوانى المعدنية كانت غاية في الاتقان وان كانت تقوم على أساليب وتقاليد فارسية كما يتجلى في الابريق البرنز المنشور مع هذا الكلام والذى كان نموذجاً للأباريق التى كانت تصنع لبلاط الخليفة وقصور الامراء وكبار رجال الدولة . وقد كانت بغداد مشهورة بصناعة الاسطرلاب . وكلنا نذكر حكاية « مزين » بغداد من حكايات « ألف ليلة وليلة » وفيها قصة الشاب الذى أراد استدعاء مزين ليحلق له رأسه فطلب الى الغلام أن يختار واحداً يكون عاقلا قليل الفضول لا يصدع رأسه بكثرة كلامه، ومضى الغلام فأتى بحلاق دخل وسلم وقال : أذهب الله غمك وهمك والبؤس والاحزان عنك . فقال له الشاب : تقبل الله منك . فقال : أبشر يا سيدى فقد جاءتك العافية أتريد تقصير شعرك أو اخراج دم فانه ورد عن ابن عباس أنه قال : « من قصر شعره يوم الجمعة صرف الله عنه سبعين داء » وروى أيضاً أنه قال : « من احتجم يوم الجمعة فانه يأمن ذهاب البصر وكثرة المرض » فتضايق الشاب وطلب الى « المزين » أن يسرع بالبدء في حلق رأسه فمد الحلاق يده وأخرج منديلا وفتحه فاذا فيه اسطرلاب وهو سبع صفائح فأخذه ومضى الى وسط الدار ورفع رأسه الى شعاع الشمس ونظر مليا ثم قال للشاب : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة وهو عاشر صفر سنة ٧٦٣ من الهجرة النبوية، وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم الحساب المريخ ، سبع درج وست دقائق، واتفق انه يدل على ان حالة الشعب جيدة جدا ودل عندي على انك تريد الاقبال على شخص وهو مسعود لكن بعده كلام يقع وشيء لا اذكره لك . . . » الخ

وعني المسلمون بصناعة النسج عناية كبيرة ولا غرو فقد وجدوها زاهرة في الاقاليم التى فتحوها، ومن ثم فاننا نجد في زخارف المنسوجات الاسلامية في العصرين الاموي والعباسي كثيراً من العناصر الساسانية والبيزنطية . واشتهرت بغداد بنسج أنواع من الحرير الفاخر وقد وصلت الينا

قطعة من النسيج الحريري عليها اسم هرون الرشيد وهي محفوظة الآن في القسم الاسلامي من متحف برلين . والمعروف انه كان للنسج في الاقاليم الاسلامية مصانع أهلية عليها رقابة حكومية كما كانت هناك مصانع حكومية تسمى « طراز » وهي اما طراز الخاصة ولا تشتغل الا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته وإما طراز العامة وتشتغل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب . وقد كانت المنسوجات تصنع للخليفة بكمية كبيرة ليخلعها على أفراد الرعية أو ليرسلها كسوة الى الكعبة . وكانت الكتابات على أقمشة الطراز تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الادعية وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وتمتلك دار الآثار العربية قطعة من النسيج باسم الخليفة الأمين وجدت في الفسطاط وعليها الكتابة الآتية : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الامين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين »

وتدل قطع الخزف التي اكتشفت في الحفائر التي قامت بها البعثات العلمية في بلاد الجزيرة على أن تلك الصناعة كانت تتطور في العصر العباسي الأول تطوراً ادى الى ظهور الخزف ذي البريق المعدني ، وقد ذهب بعض علماء المدرسة الالمانية في الآثار الاسلامية الى ان بغداد كانت موطن هذه الصناعة ولا سيما ان المصادر التاريخية كثيراً ما تتحدث عن مدينة المنصور كمركز هام لصناعة الخزف والفخار

ومن الصناعات التي عنى بها الفنانون في عصر أبي نواس صناعة الخشب والحفر كما تشهد بذلك الموائد والأبواب والكراسي التي يرد وصفها في النصوص الادبية والتاريخية عن هذا العصر . ويروون أن الأمين كان له ثلاث سفن هي الليث والعقاب والدلفين وكان كل منها على مثال الحيوان أو الطائر الذي تسمى باسمه . وركب ابو نواس معه ذات يوم في « الليث » وقال :

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن بحراً ... سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو ... أهرت الشدق كالح الأنياب
لايعانيه باللجام ولا السو ... ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب

ولا ريب في أن التصوير في العصر العباسي الأول لم يكن مهملا قط فان الصور الاموية التي نراها في قصير عمره ببادية الشام ثم الصور العباسية التي وجدت على جدران بعض الدور في سامرا — كل هذه لابد لها من حلقة اتصال وطور انتقال ، فالعصر العباسي الاول كان فيه تصوير لم يصلنا شيء منه ، ولكن صور مدينة سامرا تجعلنا نتصور طرقه وأساليبه ، وكذلك حفر الزخارف على الاحجار كان معروفاً ، كما يظهر من محراب رخامي ينسب الى عصر الخليفة المنصور ، وقد كان في مسجد ببغداد وهو محفوظ الآن في متحف العراق ، وتتكون زخارفه من أشكال أوان ومن عناقيد عنب وفروع نباتية

زكي محمد حسن



قطعة من النسيج الفاخر ، ساسانية الطراز في عصر ابي نواس ومحفوظة بدار الآثار العربية



ابريق من البرونز ساساني الطراز ويرجع الى آخر العصر
الاموى او اوائل العصر العباسى . محفوظ بدار الآثار العربية

بين شوقي وأبي نواس

بقلم الأستاذ كامل كيلاني

اعجاب شوقي بأبي نواس – تهافت الشاعرين على الحياة – النواسي لايبالي النقد – بين الشاعرين في الخمريات والغزل – مراثي شوقي وابي نواس

ما احسب شوقى الشاعر – فى جماع شعره – يمت بصلة وثيقة إلى النواسى الشاعر ولقد يدهش الباحث المنصف حين يرى – فى كثير من قصيد شوقى – محاكاة بارعة لفحول شعراء العربية أمثال : ابن زيدون والبحترى والشريف ومهيار والمتنبي ومن اليهم من الافذاذ، ويرى شاعرنا يجرى مع هؤلاء فى حلبة واحدة ويسابقهم مسابقة الند للند ويساير أسلوبه أساليبهم حتى ليخيل اليك انك ترى فى مرآة شعره صوراً صادقة لهؤلاء الاعلام

فاذا تلمست صورة صادقة لابى نواس الشاعر فى الشوقيات أضناك الجهد وأعجزك أن تظفر بطلبتك أو تستروح نسمة من شاعرية النواسى فى جمهور ماتقرأ من شعره الفذ

اعجاب شوقي بابي نواس

وما ننكر على شوقى أنه احب النواسى وافتتن به فى بدء حياته وأطلق على كرمتيه لقبه،ولكنا ننكر عمق الاثر الذى خلفه شعر النواسى فى قصيد شوقى

ولو أطلق الشاعر شوقى على كرمتيه اسم البحترى أو ابن زيدون أو الشريف او مهيار مثلا لكان ذلك بما حاكاه من اشعارهم أولى واجدر

ولو أطلق على كرمتيه اسم ابن زيدون خاصة لانصف – بذلك – شاعريته وأرضى ضميره الادبى وبر بالحقيقة التى طالما جهر بها فى احاديثه الممتعة. فقد احبه شاعرنا وافتتن به وفضله على جميع شعراء العالم – من قدماء ومحدثين – على اختلاف بيئاتهم وأجناسهم ولغاتهم وازمانهم

ولم يفته ان يلمع إلى رأيه فى تصدير ديوان ابن زيدون فقال :

انت فى القـول كله   احسن النـاس مذهبا
بأبى أنت هيكلا   من فنون مركبا

شاعراً أم مصوراً كنت ، أم كنت مطربا
ترسل اللحن كله مبدعا فيه مغربا
أحسن النـاس هاتفاً بالغوانى مشببـا

وكان ــ فيما يحدثنى ــ لا يعدل به شاعراً من شعراء الدنيا قاطبة

فكيف نعلل هذه التسمية ؟ وكيف نشأت ؟ ولماذا أطلق شاعرنا على كرمتيه لقب ابن هانى ؟ الامر غاية فى اليسر :

فقد اصطحب الشاعران وتحابا منذ تعارفا أول مرة فى فجر حياة شوقى الادبية ، ولصق بكرمته ذلك اللقب منذ نشأتها ، وتناقلته الصحف ، وعرفه الناس ، فلم يستطع منه فكاكا ، ولم ير فيه بأساً ، بعد أن سار مسير الامثال ، فانتقل اللقب من كرمته فى المطرية إلى كرمته فى الجيزة ، ولازمه فى حياته وبعد موته

وقد أولع شوقي بالاشارة إلى ابن هانىء ومقارنته بنفسه فى بعض أوائل قصائده ، فقال يصف مرقصاً أقيم فى قصر عابدين عام ١٩٠٤ :

قم أبا نوا س انظر النشب
ما الخصيب ما الــ بحر ذو العبب
هــل عهدته يعطر الذهب ؟

الى أن يقول :

هاك مدحة الـ شاعر الارب
زفهـا الى خير من خطب
فارســـية بزت العرب
لم يجىء بهـا شـاعر ذهب

وقد ذاعت هذه القصيدة وملأت الآفاق الادبية وعدها المتأدبون والنقاد ــ حينئذ ــ من روائع شوقى وآياته

ثم أشار اليه فى قصيده المرتجل الذى أنشده للامير ــ بعد عودته من الحج (١)

---

(١) قالوا : ان امير مصر ، أعجب بمعارضة شوقي للبوصيري في قصيدته التي اسماها « طراز البردة » بمناسبة حج الامير الى الاقطار الحجازية

وقد مر الامير على دار شاعره ــ بعد عودته من الحج ــ فاعجب بما رآه من بديع الزينة التي افتن فيها شوقي ليظهر احتفاءه بعودة سيده ، فقال له الامير :

« يا شوقي ! لقد اعجبتني قصيدتك ، كما اعجبتني زينتك »

فارتجل شوقى الابيات التالية :

فقال :

هذا ابن هانى نال ما قد نلت من حسب تدل به* على الاحساب
قد كان يسعى للرشيد ببابه فسعى الرشيد اليه وهو ببابى

ثم أشار اليه مرة ثالثة ، فقال :

وانى نواسى هذا الزمان فمن للزمان بسمع الرشيد ؟

وهو بيت - كما يراه القارىء - رائع النسج ، فياض الشاعرية ، ملىء بالحسرة والالم وان كانت الحقيقة تأباه والتاريخ لايؤيده ، وهو جدير أن يتمثل به شاعر مغبون لم ينل شيئاً مما يستحق، ولم يظفره زمنه ببعض ما هو أهل له من الحفاوة والتكريم . ولا كذلك شوقى فقد ظفر من الدنيا باكثر مما ظفر به النواسى ولقي من حفاوة الامير أضعاف مالقي صاحبه . وقد سجن أبو نواس أكثر من مرة ولقى اعناتاً وجهداً حين أطال الرشيد حبسه - ذات مرة - عقاباً له على قصيدته التى هجا بها عدنان وافتخر فيها بقحطان وافتتحها بقوله :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

وليس قول أبى نواس حين هم الخليفة بقتله - بغائب عن أذهان الطلبة بله المتأدبين ، فهو فى محفوظاتهم الاولى ، وفيه يقول :

بك أستجير من الردى متعوذاً من سطو باسك
وحيـاة رأسك لا أعو د لمثلها وحياة راسك
من ذا يكون أبانوا سك إن قتلت أبا نواسك ؟

وقد كان أبو نواس واحداً من شعراء الرشيد والامين ، ولا كذلك شوقى فهو شاعر الامير الفرد « وما بالقليل ذا اللقب » كما يقول

وقد لقى أبو نواس من رعاية الامين أكثر مما لقى من رعاية الرشيد ، وما نظن القافية قد أنفذت حكمها فى شوقى فاضطرته إلى اقحام اسم الرشيد - بدل الامين - فلعل له وجهة أخرى جديرة بالاحترام ، ولعله خص الرشيد بالذكر لحسن بصره بفنون الشعر ، وعمق تقديره لوجوه الاجادة ، وألمعيته فى وزن الشاعرية وآيات الاحسان

زين الملوك الصيد مر ببابي كرماً ، وباب الله طاف ببابى
يا ليلة القـدر التي بلغتهـا ما فيك بعد اليوم من مرتاب
ما كنت أهلا للنوال وانما نفحات أحمد فوق كل حساب
لـا بلغت السؤال ليـلة مدحه بعث الملوك يعظمون جنابي
بدران : بدر في السماء منور وأخوه فوق الارض نور رحابى الخ

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

النواسي لا يبالي النقد

وكان من الطبيعي أن نرى أبا نواس مستهتراً جريئاً ، لا يبالي النقد ، ولا يجزع من الهجاء . أما شاعرنا فقد كان — على نقيضه في هذه الخلة — فما رأيت شاعراً أو كاتباً ، أضيق ذرعا بالنقد — بله الهجاء — من شوقي

وكان يبلغ من ذلك انه لا يطيق أخف ملاحظة عليـه ، ولا يتسع صدره لاقل استدراك على شعره

ولو ألفت كتاباً في تعداد مناقبه ونحلته مزايا الخالدين وفضلته على شعراء الامم قاطبة — من قدماء ومحدثين — ثم الممت في ثنايا مدائحك بهفوة يسيرة لاحفظته عليك وأصبحت في عداد حاسديه وأعدائه . وكان يسهر ليله ولا ينام ، اذا قرأ نقـداً موجها اليه أو نمى اليه أن أحـد الناقدين يهم بلمز شعره

وقد كان خلصاؤه يخفون عنه الصحف التي تعرض لنقده ولا يظهرونه إلا على مدائح المعجبين من منصفين ومأجورين

وما نذكر أننا قرأنا لشوقي — فيما قرأناه من شعره — بيتاً واحداً في هجاء كائن كان إلا منتصراً لمبدأ عام أو مقرراً لفكرة اصلاحية أو ناعيا على منحرف نقم منه او منددا بخطأ لا يرضاه

وقد أشاد شاعرنا بابن زيدون وأكبر فيه تورعه عن الهجاء — ونسى انه قد هجا ابن عبدوس أخبث هجاء — فقال شوقي متمدحا بهذا الخلق الكريم الذي توهمه في ابن زيدون :

وإذا الهجو هاجه لمعـاناته أبى
ورآه رذيـلة لا تماشي التـأدبا
ما رأى الناس شاعراً فاضـل الخلق طيبا
دس للنـاشقين في زنبق الشعر عقرباً

أما هجاء النواسي فقد كان — على قلته — لاذعا خبيثا

في الخمريات والغزل

بقيت هناك ملاحظات كثيرة لا تتسع لها هذه الالمامة العابرة ، فلنقتصر منها على واحـدة لانستطيع اغفالها مهما ضاق المقام

كان أظهر مزايا النواسي ابداعه في خمرياته وغزله وأظهر ما نراه في شعر شوقي تقصيره في هذين الفنين وتخلفه النادر فيهما

وقد تجاوز النواسي — في الخمر والغزل — غايات الاجادة وتخطى حدود الابداع وتفنن فيهما

ما شاءت له عبقريته وفنه، وأصبحت خمرياته — على الاخص — أكبر آيات شاعريته وصارت مضرب الامثال فى كل العصور ، حتى خصه المعرى فى رسالة الغفران بالحكم على شراب الجنة ورآه فى هذا الباب فيصلا ترضى حكومته ولا يرد له رأى فقال :

« ولو جرع منه الحكمى (١) لحكم بأنه الفوز »

أما شوقى فقد تجلت شاعريته فى أكثر فنون الشعر بمقدار ما تجلى تقصيره — ولا نقول قصوره — فى هذين الفنين . وربما عجب النقاد من ذلك وقالوا : « اذا عذرنا شوقى فى تخلفه فى الغزل لم نجد مبرراً واحداً يسوغ تخلفه عن اللحاق بشأو النواسى فى وصف الخمر ، فقد فتن بها الشاعران فتنة واحدة وهاما بشربها مدى الحياة » . ولكن عذر شوقى فى ذلك واضح كما يراه القراء بعد قليل

مراثي شوقي وابي نواس

على أن شاعرنا قد أجاد فى الرثاء اجادة نادرة — فى سواد شعره — وأبدع فيه ابداعا لا يعد له إلا تخلف النواسى فى هذا الباب

ولقد تجلى تقصير النواسى — ولا نقول قصوره كذلك — فى رثاء ولده حين قال :

لعمرك ما أبقى لنا الموت باقياً نقر به عينا غداة نؤوب
كأنى وترت الموت بابن أفاده على حين لاحت كبرة ومشيب

وكأنما حسب أنه قد أرضى فنه وحزنه عليه بهذين البيتين ، وظن أن تلك اللفتة الفنيه الرخيصة كافية فى تصوير ألمه لفقد ولده العزيز عليه

وإن من يقرأ مراثى ابن الرومى فى أبنائه الثلاثة ليرى نفسه فى سعة من العذر اذا أسقط مراثى أبى نواس ولم يستجد منها إلا القليل النادر . ومن ذلك القليل النادر أبياته فى رثاء الامين ، التى يقول فيها :

طوى الموت ما بينى وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر

✡ ✡ ✡

أما عذر شوقى فى تخلفه فى الخمريات وعذر النواسى فى تقصيره فى الرثاء فهما واضحان للباحث المنصف وليس فيهما من خفاء

فقد شغل شوقى نفسه بأحداث الفناء وقضى حياته — على ما أصاب من نعمة ورخاء — معنى الخاطر مروع القلب بأهوال المنية وأصبح يرى فى مصرع كل صديق صورة مفزعة تمثل له مصرعه الوشيك وتقض مضجعه وتهيج بلابله حتى صدق فيه قول الشريف الرضى :

(١) الحكمي : لقب ابى نواس

من يكن زائري يجدني مقيما اتبع الفائتات بالرائحات
من ندامى على الهموم قعود يدعمون الأذقان بالراحات
كلما أنزفوا من الدمع مدة هم دواعي الهموم بالعبرات

ولقد كانت الخمر تذهله عن همومه فترات ثم لا تلبث احداث الزمن ومصارع الألاف والخلصاء أن تشغله عن وصف الخمر والتفنن فيه

أما أبو نواس فقد كان — على النقيض من ذلك — لا يكاد يلتفت إلى الوراء ولا يعنيه إلا حاضره السعيد. وما كان الموت ليمر على خاطره إلا فترات قصيرة ثم تشغله الحياة الغرور ومتعها البراقة عن التفكير فيه. وما للنواسي والركون إلى اليأس واطالة الحزن على الموتى والاستسلام إلى هموم الحياة والبكاء على الاطلال والدمن وفي الراح سلوته ونعيمه وترياق آلامه وشفاء نفسه من ذكريات الفناء الاليمة؟ ألا تراه يقرر هذا المذهب المرح في أبلغ عبارة وأدق أسلوب، حين يقول:

لا تبك للذاهبين في الظعن ولا تقف بالمطي في الدمن
وعج بنا نصطبح معتقة من كف ظبي يسقيكها فطن
تخبر عن طيبه محاسنه مكحل ناظريه بالفتن
ما أمت العين منه ناحية إلا أقامت منه على حسن

أو يقول:

اصدع نجي الهموم بالطرب وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته لا تقف منها آثار معتقب

* * *

وانظر اليه فهو لا يكاد يذكر مجالسه وخلصاه، وينعم الفكر في الاحباب والندمان الذين طوح بهم الدهر وأسلمهم إلى الفناء، حتى يرى في ابنة العنب غنيته وعزاءه عن كل ما فقد من متع الحياة

ولا ننسى — قبل أن نختم هذه اللمحة السريعة — أن نذكر القارىء بأن كلا الشاعرين من شعراء البلاط المقربين، وأن كليهما على حظ كبير من الثقافة، وكليهما فياض الشاعرية بصير بفنون الشعر، وكليهما مرهف الحس بارع الخيال مفتون بروائع الحسن مأخوذ بسحر الجمال

كامل كيلاني

قال ابو نواس - فى الخمر

عفى المصلى وأقوت الكثب   منى فالمربدان فاللبب
فالمسجد الجامع المروءة فالجد   د عفا فالصحان فالرحب
مجالس قد عمرتهـا يفعاً   حتى بدا فى عذارى الشهب
فى فتية كالسيوف هزهم   شرخ شباب وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فانقسموا   أيدى سبا فى البلاد فانشعبوا
لن يخلف الدهر مثلهم أبداً   على هيهات شأنهم عجب
لما تيقنت أن روحتهم   ليس لهـا ما حييت منقلب
أبليت صبرا لم يبله أحـد   واقتسمتنى مآرب شعب
كذاك انى اذا رزئت أخاً   فليس بينى وبينه نسب
قطربل(١)مربعي ولى بقرى الكر   خ مصيف وامى العنب
ترضعنى درها وتلحفنى   بظلها والهجير يلتهب
اذا ثنته الغصون جللنى   فينان ما فى أديمة جرب
يبيت فى مأتم حمائمه   كما تراءى الفواقد السلب
يهب شوقى وشوقهن معاً   كأنما يستخفنا طرب
فقمت أحبو الى الرضاع كما   تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرت بنت دسكرة   قد عالجتها السنون والحقب
هتكت عنها والليل معتكر   مهلهل النسج ماله هدب
من نسج خرقاء لا تشد لها   أخبية فى الثرى ولاطنب
ثم توجأت خصرها بشبا الأشـ   فى فجايت كأنها لهب
واستوسق الشرب للندام وأجـ   راها علينا اللجين والغرب (٢)
أقول لما تحاكيا شبهاً   أيهما للتشابه الذهب
هما سواء وفرق بينهما   أنهما جامد ومنسكب
ملس وامثالها محفرة   صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم   سماء خمر نجومها الحبب
كأنها لؤلؤ تبعثره   أيدى عذارى افضى بها اللعب

---

(١) قطربل بضم الباء المشددة موضع تنسب اليه الخمر (٢) الغرب: الذهب

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ابن هانئ

شاعر أبيقوري المزاج في عصر يغري بالأبيقورية

بقلم الاستاذ علي ادهم

«.. وشعر ابي نواس وثيقة منقطعة النظير في الادب العربي، في الصراحة والجرأة، وصدق التصوير.. وهو انموذج لأقصى ما انتهت اليه الابيقورية في عصر من ازهى عصور الحضارة الاسلامية..»

كان لسقوط الدولة الاموية وانتقال الخلافة الى بنى العباس رجة شديدة وأثر بعيد فى العالم الاسلامى. وقد كان انتصار العباسيين فى وضعه الصحيح وتفسيره الصادق انتصاراً للفرس على العرب، واستعادة لنفوذهم الضائع وسلطانهم المفقود. وقد لا يخلو من المبالغة اعتبار الفرس أن معركة الزاب كانت رداً على انتصار العرب عليهم فى القادسية. ولكن الثابت المعروف أنه منذ قيام الدولة العباسية بدأت سطوة العرب فى الزوال. وأخذ نجمهم فى الافول. وكانت سياسة الدولة الاموية فى صميمها قائمة على التشيع للعرب وتمجيد العنصر العربى والاستناد إلى العصبية واتخاذها أداة من أدوات السياسة وسبباً من أسباب القوة. ولم يستطع حتى كبار الخلفاء الامويين ونوابغ ساستهم الاقلاع عن تلك السياسة الخطرة والخروج من حيزها الضيق وأن يستبدلوا منها سياسة أخرى تقوم على مزج العناصر المختلفة ومحو أثر الفوارق الجنسية. وكانت هذه السياسة من أقوى الأسباب التى جلبت عليهم الاهوال الشداد وأثارت عليهم النقمة فى نفوس الشعوب غير العربية وعجلت بسقوط دولتهم. وقد كان هذا التعصب للعرب يستدعى التعلق بعاداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتعظيم مناقب الجاهلية والاعجاب بالبداوة حتى رسخ فى الاذهان واستقر فى النفوس أن التقاليد العربية هي المثل الاعلى الذى يجب احتذاؤه والاخذ به. فلما غلب الامويون على أمرهم وعلت كلمة الفرس استتبع ذلك الشك فى قيمة الآداب التى اقترنت بعلو سلطان العرب واستمسك الناس بها تشبهاً بهم ومجاراة لهم، شأن الامم المغلوبة فى الاخذ بعادات الامم الغالبة ومحاكاة تقاليدها. وكان من أثر ذلك ان استرخت أواصر العصبيات وأخذت فى التفكك والانحلال وتولت أنفة البداوة وجهرت الشعوبية باذاعة مثالب العرب ونقائص الجاهلية وبعثت الدولة الجديدة الناهضة نشاطا مستحدثاً وأثارت هما كانت راقدة وأحيت آمالا كانت ذاوية فاستفاضت الاموال واتسع الثراء وحفلت الحياة بمظاهر الترف ومجالى

الاناقة . وتوافر الثروة مدعاة إلى الانغماس فى الرفاهة والاسراف فى طلب المتعة وانطلاق الشهوات من عقالها . وكثر التسرى تبعاً لذلك فكان من دواعى سقوط مكانة المرأة وانحلال الاسرة والنزوع الى التهتك . وراجت مجالس الشراب وارتفع شأن الغناء وترك الخلفاء الحرية للناس ينغمسون فيما يشاءون من اللهو والمتعة ما داموا لا يتصدون للسلطان ولا يخلعون الطاعة . والشعراء بطبيعتهم الحساسة ونفوسهم النزاعة الى الفوضى والتحلل من قيود العرف أسبق الناس الى الانطلاق فى هذا الميدان وأشدهم اقبالا على اجتناء اللذة واهتصار المتع والمسرات . وقد كان الامويون يستعينون بالشعراء على تثبيت ملكهم وتأييد دعوتهم والنضح عن سياستهم واذاعة محامدهم لتعويلهم على العصبية . أما الدولة العباسية فكان لها من قوة أنصارها الفرس ما يغنيها عن التكثر بالشعراء والتقوى بهم

ولما ثبتت دولتهم أصبح المقصود من تقريب الشعراء الاستمتاع بالادب باعتباره مظهراً من مظاهر الجمال وزخرفا من زخارف الحضارة ولونا من ألوان المتعة . وكان الشعراء يحضرون المجالس التى يعقدها الخلفاء والوزراء للشراب والغناء ويقومون فيها مقام المحدث المسلى والنديم الفكه . واستدعى ذلك أن يكثر فى الشعراء أهل المجون والتهتك والخلاعة

وفى خلال ذلك نشطت الحركة الفكرية وازدهرت واتسعت آفاقها وأثارت مظاهر الحضارة المؤتلفة ومجالى الجمال خيال الشعراء وصقلت قرائحهم فخالجتهم احساسات لم يشعر بها الشعراء من قبل وطافت برءوسهم أخيلة جديدة وصور ذهنية غير معهودة . وقد نشأ أبونواس وترعرع ونضجت شاعريته فى هذا الجو الحافل . وكان هذا العصر مقدمة صالحة لانتاجه ومسرحاً مناسباً لظهوره . فلا غرابة ان كانت أشعاره أوضح صورة لهذا العصر اللامع الذى استتبت فيه الحضارة واتسعت الثقافة واتجهت فيه النفوس الى طلب المتعة

وشعر أبى نواس وثيقة منقطعة النظير فى الادب العربى ، فى الصراحة والجرأة وصدق التصوير ، فانه لم تجل بنفسه خطرة ولم تحدثه نفسه بريبة ولم تلم به نزوة أو تعرض له شهوة الا كشف عنها وترنم بهـا فى شعره واصفاً دبيبها بين جوانحه وتمشيها فى خواطره كانه كان يرى فى ذلك شفاء لنفسه المتطلعة المنهومة ومتنفساً لفنه . وهو من هذا الطراز من الناس الذى يدين بالمتعة ولا يؤمن فى الحياة بغير اللذة . وهو أنموذج لأقصى ما انتهت اليه الابيقورية فى عصر من أزهى عصور الحضارة الاسلامية . والحياة فى نظره فترة قصيرة ونهزة عارضة ، من الحماقة ألا نغتنمها قبل فوات وقتها . وهي ليست جديرة بأن يقضيها المرء فى طلب الغايات البعيدة وتحقيق المطالب العالية ، وليس فيها أعماق سحيقة تسترهب الناظر اليها ولا أبعاد فسيحة يضل فيها الفكر . فاذا علم أن بعض معاصريه يجهد ويفكر ويقف من الحياة موقف المتأمل مثل ابراهيم النظام عرض به من وراء لهوه وقذفه بمثل قوله :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة   عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وقد توافرت له أسباب المتعة واجتمعت له دواعي اللهو والمجون حتى نال منها ماشاء كما قال في أحد اعترافاته :

ولقـد نهزت مع الغواة بدلوهم واسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصـارة كل ذاك اثام

وشعره هو صدى مخاطراته في اقتناص اللذة واغتنام اللهو واعتراف يتقدم به إلى الاجيال التالية غير متردد ولا هياب وفي غير محاولة أن يبرر سلوكه أو أن يعتذر عن نفسه . وقد ساعدته نشأته على انماء خصائصه النفسية ومكنه عصره من الانطلاق طوع شهواته ، وكان من أول أمره مخاطراً لا يعتز بحسب ينتمي اليه ولا يلوذ بمنصب كبير في الدولة يتوارى خلفه ، ولم يكن له سند في الحياة غير قدرته الشخصية ومزاياه الفنية . وكان جو بغداد ملائماً أشد الملاءمة لتفتح هذه الشخصية وبلوغها الى منتهى ما قدرته لها الطبيعة . وقد كان أبو نواس رجلا وسيماً معتدل القامة سليم البنية يقظ الحواس حاد الذكاء قوى البادرة يحسن الخروج من كل مأزق والتغلب على كل عقبة . ورجل له مثل هذه السرعة في الاحساس والتصور والعمل وهذا الانسجام بين القوى العقلية والقوى البدنية لا بد أن يصطدم بقوانين العرف المتبع والآداب المرعية ، وقد كان أبو نواس متحللا من قيود الاخلاق لا لانه ثائر عليها بل لانها ليست في دمه ولا في احساسه ولا حساب لها في مزاجه ، وقد حماه ذلك التردد والاحجام ووطأ له تحقيق اطماعه وإشباع شهواته . وقد كان عنده من قوة النشاط ودقة الفهم وسعة الحيلة ما يمكنه من الاضطلاع بعمل كبير من أعمال الدولة . ولكنه آثر ان يعيش ملء حياته ، والحياة عنده هي طلب المتعة قبل كل شيء . وكانت الحاسة الاخلاقية في نفسه كثيرة الرقود نادرة الاستيقاظ ، ولذا لم يخالجه ندم على ما فرط منه إلا عند ما وهنت قوته وأحس ضعف الشيخوخة ودنو الاجل . وهو من هذه الناحية يشبه المجرم المطبوع الذى لا يشعر بتبكيت الضمير ووخز الندم ويرتكب أفظع الجرائم وهو هادىء السرب وادع النفس . وقد كانت هذه الطبيعة اللاهية والحيوانية الغارمة والشهوات الفائرة تبعثه في كل حين على ان يكون له انتصارات في عالم الحب والشهوة ، وفي هذا دليل على أن عاطفة حبه لم تكن مهذبة مصفاة ولا عميقة متولجة . وفقدان هـذه الرقة في الاحساس والعمق في الشعور اعانه على أن يعرض نفسه على قراء شعره عارياً دون أن يدرك ما في ذلك من الاساءة ، وجعله مخلصا في تصوير نفسه

وأبو نواس مع استخفافه بالعرف وخروجه على الآداب ليس بالجبار الذى يحاول هدم المجتمع وينصب لحربه ، فان الامر عنده أهون من ذلك . وانما هو يبحث عن المتعة ويسير اليها غير عابىء بشيء وهو يأخذ الدنيا كما هي ويتلقى نفسه كذلك من الطبيعة كما هي لا يحاول أن يرتق بها فتقاً أو يصلح

يسعى فى اصلاحه وهل هو يشعر بنقص حتى يعمل على استيفائه ؟ ان الشعور بالنقص مصدر تصور الكمال . اما ابو نواس فقد أبت له حيوانيته القوية وواقعيته الراسخة أن يشك فى نفسه أو يغير من خطته ، ولذا رسم نفسه فى كل ظلالها ومختلف مواقفها . ومن مزايا الرجل هذه الصراحة الفذة لان قاطع الطريق الذى يفاجيء الانسان خير من السفاك الذى يبدو فى مسوح الراهب . أو الذى يتصنع الغيرة على الفضيلة وهو لا يؤمن بها فى طوايا نفسه

ومن آراء شوبنهاور اننا اذا سلكنا فى الحياة أى طريق فاننا نظل غير قانعين به متطلعين الى سلوك طريق غيره . فالعابد الزاهد تمر به أوقات يسأم العبادة ويمل الزهد ، ولكنه يكافح هذا الملل ويطارد وساوس شيطانه ويلقى فى ذلك الشدائد ويكابد الثورات العنيفة . كذلك الرجل السادر فى اهوائه الغارق فى شهواته تمر به أوقات تكل فيها الحواس وتفتر الحيوية فيعروه الملل وينتابه التشاؤم والشعور بالهزيمة تلقاء الحياة ، فليس عجيبا أن يكون ابو نواس اللاهى الماجن ، هو القائل :

ألا كل حى هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

وقد قرر علماء النفس أن حياة العفة الشديدة قد تنتهى بعد طول الكبت والاحتباس بنوازع جنسية غريبة وميول شاذة ، وذلك لان الأهواء التى طال قمعها فى اعماق النفس حتى اهمل أمرها وسحب عليها النسيان أذياله ، تثور من مكامنها وتهب من رقادها وتطلب حقها فى الحياة . ولقد كان بعض الرهبان يتسلى بكتابة القصص الحافلة بالشهوة الثائرة لانهم يجدون فى ذلك — شعروا بذلك أو لم يشعروا — منفذا لميولهم المكبوتة وطريقة مأمونة لحفظ التوازن بين هذين العاملين اللذين يتلاعبان بالنفس ويحاول كل منهما ان يخضعهـا لنفسه وهما عامل الميل الى اللذة وعامل النزوع الى الزهد

وهنا تبدو لنا صفة اخلاقية هامة فى شعر ابى نواس . وذلك أن القوة الادبية للفن ليست فى قدرته على تصوير تجاربنا بل فى قدرته على تجاوز حدود تلك التجارب وتوسيع افقها . فلا غرابة اذا وجد الرجل العفيف متنفسا لجانب اللهو الراقد فى نفسه فى أمثال شعر ابى نواس وقصص بوكاشيو وروايات لورانس . ومزية هذا الادب المكشوف انه يمكننا من ان نحتفظ بالتوازن فى نفوسنا بين عاملى اللذة والزهد دون أن نتعرض للاخطار الكامنة فى كليهما . وأمثال هذا الادب قد يجعلنا نعيش فى هدوء وسكينة داخل قيود الحضارة وتقاليد المجتمع

وقد كان شعور ابى نواس بالقوى الخفية فى الدنيا شعوراً ضعيفاً . ومعلوم ان الزهد والمتعة عاملان هامان فى الحياة . وبراعة فنان الحياة الماهر أو الذى يعلم كيف يعيش ، هى أن يمزج هذين العاملين لاننا لا نعرف حقائق الحياة الروحية الا اذا احسسنا حقائقها الطبيعية . ولهذا لا نستطيع فى كل موقف أن نعود الى شعر ابى نواس لانه ليس متسعا كالحياة

على ادهم

أبو نواس
بين المعري والخيام

بقلم الأستاذ سيد ابراهيم

لابى نواس شخصيتان : شخصية خرافية يتداولها سواد العامة ، وأخرى تاريخية يعرفها طوائف الخاصة ، وقلما اجتمعت هاتان الشخصيتان لغيره من الشعراء . فابو العلاء المعرى والمتنبي وابن الرومي والبحترى وأبو تمام وبشار بن برد ومن اليهم من نوابغ الشعر العربى وأفذاذه ، لا يكاد يعرفهم من الناس إلا من أولع بدراسة الادب العربى وتخصص فيه ، ولا كذلك أبو نواس الذى يتمتع بشهرة مستفيضة بين جمهرة العامة الى اليوم . ومن منا لم يسمع بابى نواس ونوادر أبى نواس على ألسنة العامة وأشباه العامة الذين كثيراً ما يضعونه هو وجحا فى صف واحد ، والذين كثيراً ما يجمعون بينهما فى مجلس هارون الرشيد يسابق كل منهما الآخر فى المفاكهة والنادر وقلما يفرقون بين الرجلين ؟

> ابونواس بين شخصيته الخرافية والتاريخية
> كيف يلتقى ابو نواس بالمعري والخيام ؟ ـ
> الخيام يلتقى بابي نواس في النتيجة
> والاثر ـ ايمان ابى نواس ـ المعري
> بين صاحبيه ـ وصايا الشعراء الثلاثة

ولعل مصدر هذا ومبعثه أن أبا نواس كان ماجنا خرقا لا يخطر النسك له على بال ، قضى حياته متهاونا بالشرائع والاخلاق ملازما للهو والمجون بين الكاس والطاس والنساء

بمجالس فيها المزاهر والاوانس كالنجوم

فهو لا يكاد يخرج من حانة إلا الى حانة «واصلا بعرى الغبوق عرى الصبوح» لا يدع لذة يومه لغده ، داعيا الناس إلى الاقتداء به ما استطاع إلى ذلك سبيلا

وقد قضى أبو نواس فى ذلك صدر حياته حتى اذا ولى عهد الشباب ومضى زمن التصابى وأعقبهما عصر المشيب وأيقن أن لا مفر من الله إلا اليه ، طفق يتحسر على سالف غوايته وماضى عمايته متبتلا إلى الله

يسبح كيما يغفر الله ذنبه رويدك فى عهد الصبا ملء الطرس

كيف يلتقى ابو نواس بالمعرى والخيام

قضى أبو نواس شبابه شاعراً مستهتراً سكيراً عربيداً فى عصبة من قرنائه

وقح تواصوا بترك البر بينهم تقول ذا شرهم بل ذاك بل هذ.

وليس هناك أحد يستطيع أن يصف أبا نواس غير أبى نواس نفسه حيث يقول :

طربت الى الصنج والمزهر وشرب المدامة بالا كبر
والقيت عنى ثياب الهدى وخضت بحوراً من المنكر
وأقبلت أسحب ذيل المجون وأمشى على القصف فى مئزر

وقوله :

غدوت على اللذات منهتك الستر وأفضت بنات السر منى الى الجهر
وهان على الناس فيما أرومه بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر

وهنا يقرر مذهبه فى هذا ويبث فلسفته المجونية فى عبارة واضحة وأسلوب جلى فيقول :

رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحير فى تفضيله فطن الفكر

وثم يلتقى بالخيام وأبى العلاء المعرى فى التنبه لفكرة الفناء العاجل والتأثر بها ولا عجب فى هذا فان فلسفة ثلاثتهم جميعا وآراءهم فى الحياة تصدر من نبعة واحدة وان اختلفت نتائجها وتباينت آثارها

الخيام يلتقى بأبى نواس فى النتيجة

على أن أبا نواس والخيام يلتقيان فى النتيجة والاثر ، فان فلسفتهما تتلخص فيما يلى : اذا كان الموت واقفا لنا بالمرصاد واذا كان النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير الى بلى ونفاد ، فما أجدرنا بالاسراع فى اقتناص فرص الحياة والاندفاع فى سبل الغواية والمرح.وقد اجمع كلاهما على هذا الرأى اجماعا ان لم يكن شاملا فيكاد ، فقال أبو نواس :

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان على مأثور القبيح
وجدت ألذ عارية الليالى قران النغم بالوتر الفصيح
ومسمعة اذا ما شئت غنت « متى كان الخيام بذى طلوح »
تمتع من شباب ليس يبقى وصل بعرى الغبوق عرى الصبوح
ألم ترنى أبحت الراح عرضى وعض مراشف الظبى المليح
وانى عالم أن سوف تنأى مسافة بين جثمانى وروحى

وقال ابن الخيام :

كنت فى حانة سألت عن الما ضين شيخا مستغرقا فى الشراب
قال دعهم واشرب فكم من أناس مثلنا قد مضوا لغير مآب

وقال :

أشرب الصهباء فى ظل الصبا ما زها ورد بتيجان الربى
واذا ساقى المنايا أوجبا شربة مضت ومرت مطعما
فاحس جلدا خمرة الموت الزؤام

ايمانه أبي نواس

ولكن أبا نواس كان مسلماً يؤمن بالبعث والجنة والنار وإن كان لم يمنعه ذلك الاعتقاد من أن يطلق لنفسه العنان فى غير حياء ولا خجل . وهو لم يقفه اعتقاده وايمانه فى ذلك عند الغاية التى وقف عندها ابن الخيام . بل تخطاها إلى اعنف درجات اللذات الشاذة وضروبهـا المشروعة وغير المشروعة ، ولما لم يستطع أن يلائم بين عمله ودينه لجأ إلى حيلة طريفة ليلقى بها عن كاهله كل تبعة دينية كانت أم خلقية ، فابتدع له مذهبا يقرر فيه فى صراحة وثقة أن عفو الله وغفرانه أوسع من أن يضيقا بذنب مذنب أو اساءة مسيء ، وراح ينادى فى لهجة المستوثق المطمئن :

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فان حظركه للدين ازراء

ولم يقف عند هذا الحد بل راح يدعو الناس الى مبادرة اللذات واغتنام الفرص فى الحياة ويؤكد لهم انهم سيندمون على ترك ملذاتهم حين يتجلى عفو الله فى الآخرة فيقول :

تكثر ما استطعت من الخطايا فانك بالغ ربا غفورا
ستبصر ان قدمت عليه عفوا وتلقى سيداً ملكا كبيراً
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

ردا على الكأس انكما لا تدريان الكأس ما تجدى
خوفتمانى الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندى
لا تعذلا فى الراح انكما فى غفلة عن كنه ما تسدى
لو نلتما ما نلت ما مزجت الا بدمعكما من الوجد
هاتا بمثل الراح معرفة بلطافة التأليف والود
ما مثل نعماها اذا اشتملت الا اشتمال فم على خد
ان كنتما لا تشربان معى خوف العقاب شربتهـا وحدى

المعرى بين صاحبيه

وجماع القول أن قصر الحياة وتوقع الموت بين لحظة وأخرى قد حفزا ابن الخيام وأبا نواس الى غاية على النقيض من غاية المعرى ، فاندفع الاولان يقولان مستوثقين : لابد من الاستمتاع بكل

لذة من لذات الحياة فى ساعاتنا القصيرة التى نحياها

واندفع المعري يقول :

وكيف أقضى ساعة بمسرة   وأعلم أن الموت من غرمائى

وثم رأينا أبا نواس المتدين المعتقد ـ ان صح ما عرفناه من حسن عقيدته ودينه ـ مثالا للخلاعة والمجون ، والتقى معه الخيام الشاك المرتاب

وانفرد المعرى باحتقار الحياة والزهد فيها ـ على سوء عقيدته ان صح ما يتهمه به معاصروه ومؤرخوه ـ فاصبح فى حياته مثال الناسك المتقشف الورع ، وصار المتدين سكيراً مدمناً للخمر ما جناً شهوانياً يفعل الشر ويرجو من الله الغفران ويطمع فى الجنة ، بينا نرى المرتاب المتهم بالزندقة يصنع الخير للخير وحده غير طامع فى الجنة ولا راغب فى الثواب

اليس هو القائل :

توخى جميلا واصنعيه لنفسه   ولا تحكمى ان الاله به يجزى

ورأيناه متغالياً فى الزهد فى طعامه يقصر نفسه على لون واحد طوال حياته لا يقرب الخمر زاهداً فى الزواج الذى أقرته الشريعة والعرف ، عازفا عن كل ضروب اللذات وأفانين النعيم طائعاً مختاراً زاهداً فى كل ألوان الحياة الناعمة ثم يتخذ من ذلك مذهبا مستوثقا راضياً فيقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع   ولا دافع فالخسر للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائن   فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يأبق الانسان من ملك ربه   فيخرج من أرض له وسماء
سنتبع آثار الذين تحملوا   على ساقة : من أعبد واماء
لقد طال فى هذا الانام تعجبى   فيالرواء قوبلوا بظماء
وهل أعظم الا غصون وريقة   وهل ماؤها الا جنى دماء
نهاب أموراً ثم نركب هولها   على عنت ، من صاغرين قماء
أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما   دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا   وبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون ان الدهر قد حان موته   ولم يبق فى الايام غير ذماء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه   فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وكيف أقضى ساعة بمسرة   وأعلم أن الموت من غرمائى

وهذا الدهر بشر بالمنايا   فلم فرحت ببشر أم بشر

أعن باكياً لج فى حزنه وسل ضاحك القوم مم ابتهج

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وصايا الشعراء الثلاثة

ولعل خير ما نختم به هذه الكلمة ان نثبت وصية ابى نواس لحافر قبره ونتبعها وصية الخيام ثم نتبعهما وصية أبى العلاء أيضا ، فتجد أن كلا من الثلاثة مصر على مذهبه الذى اختطه لنفسه فى حياته وموته جميعا

فترى أبا نواس يقول :

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر الا بقطربل
خلال المعاصر بين الكروم ولا تدنيانى من السنبل
لعلى اسمع فى حفرتى اذا عصرت ضجة الارجل

وكذلك تجد الخيام يقول :

رو قبل الموت من برد الشمول عودى اليابس من قبل الذبول
واذا ما مت فاجعلها غسولى وبأفياء العناقيد احتفر
لى وكفنى باوراق الثمار

على حين تجد أبا العلاء الزاهد فى الحياة البعيد عن الناس يوصى حافر قبره أن يتخير له موضعا من الارض لم يحفر به أحد قبراً ، فهو يؤثر العزلة فى حياته ومماته جميعا فيقول :

وددت وفاتى فى مهمه به لا مع ليس بالمعلم
أموت به واحداً مفرداً وأدفن فى الارض لم تظلم
وأبعد عن قائل لا سلمت وآخر قال ألا يا اسلم
أحاذر ان تجعلوا مضجعى الى كافر خان أو مسلم
اذا قال ضايقنى فى المحل قلت أساءوا ولم أعلم

سيد ابراهيم
الخطاط

الدعابة في شعر أبي نواس

بقلم الدكتور أحمد زكي أبو شادي

« . . ان ابا نواس بسليقته شاعر مفطور على الدعابة ، ولئن جاءت دعابته ماجنة في اغلب الاحايين الى درجة لا تسمح بتداولها فانها مع ذلك لا تشف الا عن نفس صافية كريمة تنشد متع الحياة . . »

من نوادر الدوتشي أنه يأبى مصادرة شعر سالوستري Carlo Alberto Salustri بالرغم مما فيه من سخرية لاذعة تتناوله كما تتناول الفاشية ، وذلك لاكباره فن هـــذا الشاعر الايطالى المبدع . وقد صدرت أخيراً الطبعة الثالثة من ديوانه (أحلام وأساطير Sogni et Fiabe) تحت اسمه المستعار تريلوسا Trilussa فنفدت عن آخرها سريعاً لافتتان الشعب الايطالى بأدبه ، وإن أعز الشعب موسولينى والفاشية . ويروى عن الزعيم الايطالى أنه قال مرة للكاتب الشهير اميل لدويج فى شأن هذا الشاعر : « إن لمزه قارس ، ولكنه مليح النكتة الى درجة جعلتنى أمتنع عن مصادرة شعره » . ومن عادة هذا الشاعر الساخر أن يضع نكاته اللاذعة على ألسنة الحيوانات ، وقد حشد فى مكتبه الكثير من الحيوانات المحنطة الممثلة لأساطيره

وهذا نظير موقفنا من شعر أبي نواس الساخر . ان السخرية والمجون والدعابة والفكاهة تكاد تكون جميعها من المترادفات فى شعر أبى نواس ، ومعظمها تلونه العاطفة الجنسية المنحطة ، ولكنه بالرغم من تدليه يحتفظ بمكانة فنية خاصة . ومن أجل هذه المكانة الفنية نغفر له شذوذه ونقرأه قراءة خاصة ونرفض مصادرته . واذا كانت لسالوسترى مثالية فكرية يرمى اليها من وراء دعاباته الساخرة فان هذه المثالية نتيجة تفاعله مع بيئته الغائرة الكدود . واذا لم تكن لأبى نواس سوى غاية المتعة من أدبه كما لم يكن له فى حياته سوى نظرة المتعة الكاملة ، فان هذا رد فعل طبيعى لبيئة البوهيمية من ناحية ولبذخ القصر ومرحه من ناحية أخرى

ولو كان أبو نواس سلك مسلك ابن العلاف فى مداعباته السياسية المستترة وراء الحيوانات كما فعل ابن العلاف فى تعريضه بالخليفة المقتدر فى رثائه الهر ، مكنياً به عن الوزير ابن الفرات أيام محنته لكان قد أتحف الشعر العربى بروائع لا تقل عن نفائس ما أهداه سالوسترى الى الشعر الايطالى السياسى

ولكن أبا نواس لم يكن له شأن بالسياسة ، اللهم إلا سياسة الفن والمتعة ، وعليها يقوم إغراقه فى المجون إلى حد دخوله المسجد وهو ثمل ، حيث يروى أنه انصرف من بعض المواخير سكران فمر بمسجد وقد حضرت الصلاة ، فدخل فقام فى الصف الاول فقرأ الامام : « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه : « لبيك » ! فلما قضيت الصلاة لببوه وساقوه متهما بالزندقة الى الرشيد ، فلم تنجه الا سعة حيلته

إن دعابة أبى نواس ومفارقاته ومجونه وفكاهاته قوامها ذكاؤه المفرط وخفة روحه . وإذا كان الذوق العصرى المثقف لا يحتمل الاقتباس من معظمها لاصطباغها بالصبغة الاباحية التى كان يجيزها أدب عصره كمجونه مع عنان ودعابته مع شيخه عبد الواحد بن زياد مثلا ، فان لدينا الى جانبها دعابات أخرى بريئة أو على الاقل لم تلوث بالجنسيات

وقد اجتمع أبو نواس مع العباس بن الاحنف والحسين الخليع وشاعر آخر لعله مسلم بن الوليد ومعهم فتى يقال له يحيى بن المعلى فحضروا الصلاة ، فقام يصلى بهم فنسى الحمد لله وقرأ قل هو الله أحد ، ثم ارتج عليه فى نصفها فقال أبو نواس :

أكثر يحيى غلطاً فى قل هو الله أحـــد

وقال العباس : قام طويلا ساهياً حتى اذا أعيى سجد

وقال الآخر : يزحر فى محرابه زحير حبلى بولد

وقال الرابع : كأنمـــا لسانه شد بحبل من مسد !

ومن هذه الدعابات البريئة ما ذكره ابراهيم بن محمد الكرخى ، قال : أرسل الى سليمان بن أ ، سهل بن نوبخت : إن أبا نواس عندنا ، فصر الينا ، فانى أحسبك لا تراه بعد اليوم . فلم ألبث أن جاء أبو نواس . فدخل وعليه دراعة وشى كوفى ، وقلنسوة ما رأيت أحسن منها . واذا العلة قد بلغت به ، فهو فى آخر رمقه ، فلم يجد أوسع من الموضع الذى أنا فيه ، فجلس الى جانبى ، فقلت له : يا أبا على ! ما رأيتك لبست مثل هذا إلا اليوم ، فقال لى : أتعرف قصته ؟ قلت : لا والله ، وما هى ؟ قال : أمر الرشيد الكسائى أن يختلف الى محمد بعد ما ولاه العهد ، وأمره أن يلزمه ، وأن يحضرنى اذا حضر ، لأنشد محمداً الشعر النادر ، وأحدثه الغريب . فكنت أفعل ، وكان خادم من قبل الرشيد موكلا بمحمد . فجرى بين الخادم وبين محمد يوماً كلام وأنا حاضر ، فقال محمد : يا أبا نواس ! أهج هذا الخادم ابن الفاعلة ! فقلت : نعم يا سيدي ، وقلت فى نفسي : قد وقعت فى بلية : إن هجوت الخادم خفت أن يغتابنى عند الرشيد فيقتلنى ، وإن لم أفعل خفت محمداً ان يقتلنى . فانصرفت على أن أهجو الخادم ، فلم أرجع أياماً ، فما علمت الا والكسائى قد وافانى ، فقال لى : ويلك ! إن محمداً الأمين يتهددك بالقتل إن لم تهج الخادم ! فقلت : يا أبا الحسن ! ما يحتال لى فى هذا غيرك . فقال : أنا صائر اليه ومصلح

بين الخادم وبينه ، فاذا فعلت أخبرته أننى لقيتك الساعة منصرفاً من دار العباس بن موسى الهادى ، وأنك عند خروجك من عندنا لقيك فاخذك أسيراً ، فمضى بك الى منزله ، فلم يدعك إلا فى هذا اليوم ، فانه سيبعث اليك فيحضرك ، فلا تبرح من منزلك . ثم مضى الكسائى فاصلح بينه وبين الخادم . وأخبره بما قال لى . فبعث الى محمد فصرت اليه ، وقلت له مثل ماقال الكسائى ثم قلت له : وبلغنى أنك تهددنى بالقتل ، فقال : نعم ، فلما بلغك أنى تهددتك بالقتل ما قلت فى ذلك ؟ فحضرنى على المكان :

بك أستجير من الردى وأعوذ من سطوات باسك
وحياة راسك لا أعو د لمثلها ، وحياة راسك !
فاذا قتلت أبا نوا سك من يكون أبا نواسك

فتبسم ثم قال : لا يكون . . . يا غلام ! إذهب الى فلان الخادم ، فقل له : ابعث بالتخت الذى بعثت به البارحة سيدتى أم جعفر . فذهب الغلام فجاء بالتخت فدفعه الى وانصرف ، فكان فيه ثياب وشى هذا أحدها ، والآخر احتجت الى ثمنه فبعته ، وقطعت هذه الدراعة والقلنسوة ، واحتجت الى أن رهنت الدراعة ، فلما بلغت من العلة الى ما ترى قلت : أنعم نفسى بلبس هذه الدراعة ، فافتككتها ولبستها . . . وفارقته فى ذلك اليوم ، فما رأيته بعده

ومما قاله فى هذا المعنى وعاتب الامين به :

قل للخليفة إننى حسبى أراك بكل ناس
من ذا يكون أبا نوا سك إن حبست أبا نواس ؟
أقصيته ونسيته ولعهده بلك غير ناس
قد كنت آمل غير ذا لو كنت تنصف فى القياس
إن أنت لم ترفع به رأساً هديت فنصف راسى !

فلما سمع العتابى ذلك ، قال له : يا ابن كذا ، ما أحسن نصف رأس خليفة يرفع ! فقال أبو نواس : جعلنى الله فداك يا أبا عمرو ، لا تنبهن على ذنبى فتهلكنى . ثم قال له العتابى : هذا عندى من الشعر الذى لا يخاطب به الخلفاء ، ولا يخاطب به إلا من لا أستحسن ذكره ، فان عليه أمائر الفسق والتخانث

* * *

لقد عد ابو نواس دائماً من أعلام الشعراء ، واستوى فى هذا التقدير العرب والمستعربون ، ولكنه اشتهر لدى الجمهور بظرفه ودعاباته ، واخترعت حول سيرته نوادر مضحكة وأقاصيص كثيرة وفكاهات شتى على مثال ما عرف عن Howleglass أو Joe Miller عند الغربيين . وكان ابو نواس فارسى الدم من ناحية والدته ، ومع أنه نشأ نشأة وضيعة فقد أبلغته مواهبه

الفذة صحبة الامراء . ودان بدين الحب والخمر ، وفيها نظم أنفس فرائده ؛ وكان شغله الشاغل فى الحياة الاستمتاع الأتم بها . فمهما ارتحنا إلى التحدث عن دعاباته البريئة أو المقبولة نسبياً ، فمن المحال أن نقوى على التخلص من دعاباته الفاجرة التى تمثل جل نوادره حتى المخترع منها فى « الف ليلة وليلة » وما شاكلها . وإذا عد الاخلاقيون فى ذلك ما يشينه ، فان مما يشرفه حقا تجرده التام عن النفاق ، فهو صريح كل الصراحة بحيث أننا لا نتردد فى قبول شعره الدينى باعتباره مظهراً صادقاً لنفسيته فى أحوال خاصة ، وبحيث أننا مهما أنكرنا تبذله فى دعابته لا نستطيع ان نتبين فى خشونته غير الظرف المستور . فهو بوديلير الشرق الى حد كبير ، وقد كان ذلك الشاعر الغربى المستهتر طيب القلب مثله ، صريحاً غاية الصراحة . على أن خير مقارنة هى التى عقدها الاديب الانجليزى برتون Burton بين روتشستر Rochester وأبى نواس ، وقد تناولها بتعليقاته الاديب الانجليزى إنجرامز فى مقدمة كتابه الجميل عن أبى نواس . ومهما يكن من شىء فلا ريب ان الادب المكشوف فى العربية اكثر خشونة من نظيره الاوربى ، ودعاباته الجنسية - كالتى اكتظ بها شعر ابى نواس - ليست مما يتذوقه الاديب العصرى المثقف الذى اتصل طويلا بالادب الغربى وصقل ذوقه الاطلاع المهذب ، كذلك يدخل بعض الهجاء فى باب الدعابة مثل هجائه أبان بن عبد الحميد اللاحقى بقصيدته النونية التى يقول فى مطلعها :

جالست يوماً (ابانا) لا در در (ابان)

وهو هجاء قوامه الذكاء والنكتة المستقصية ، ولكن كل هذا غريب إلى حد كبير عن الذوق العصرى المثقف ، وإن راعيناه احتراماً لتاريخ الادب اكثر من كونه متعة أدبية قويمة ، إذ الواقع ان ادب التسلية الذى تنتسب اليه دعابات ابى نواس لا يمكن ان يعد ادباً عالياً لانه لا يشيع اسمى ما فى النفس البشرية ولا يتقدم بها الى الامام بل قد يرجع بها إلى الخلف . ولا يشفع له ما فيه من عنصر الذكاء . وفى هذا يقول بلاكوود وازبورن فى كتابهما «دراسة الشعر» : إنه وإن كان شعر الدعابة مما يشوق الخاطر والعاطفة ، إلا انه لا يدخل فى باب الشعر الليريكى . وقد توجد الدعابة فى جميع ضروب الشعر ولكنها غالبة فى الشعر الفكاهى ، ولا يمكن ان يعد هذا الشعر من النسق العالى ، ومع هذا فان له مكانته فى ادبنا وهو جدير بان يخص به قسم معين من اقسام الشعر

ان المؤلفات الاوربية فى فلسفة الدعابة كثيرة ، وفى دائرة المعارف البريطانية مقالة صالحة عنها ، ولو جئنا نطبقها على شعر ابى نواس الفكاهى وعلى سيرته ودعاباته لوجدنا شاعرنا الكبير من اعلام الادب الفكاهى - بالرغم من حدود الشعر ، وبالرغم من الشوائب التى اشرنا اليها - بقدر ماهو من امراء الفن الشعرى فى الماضى والحاضر . وقد اذاعت شركة فولشام W Foulshan بمجموعة مختارة لستين قصيدة ومقطوعة من اجمل النظم والنثر الفكاهى باللغة

الانجليزية . وبالرغم من تباين الاذواق فلنا يحق ان نقول ان شاعر العربية لم يكن فى دعابته اقل فطنة ولا براعة من انداده الغربيين

ولقد اشتهر ابو نواس بدعابته ، وهى مرآة نفسه الصريحة الصافية ومرآة بيئته التى عكسها لنا عقله الباطن فى غير مواربة . ولكن ليس من الانصاف لشاعرنا أن نزن شاعريته بمقياس دعابته وحدها وإن امتزجت بالكثير من شعره وعلى الاخص بخمرياته واخوانياته وغزله وهجائه ، فان له خوالد من اسمى الشعر الانسانى والوصفى وإن جاء فى باب الخمريات وما شاكلها ، حتى قال أبو شعيب القلال (وكان عالما شاعرا) عندما أنشده الجاحظ سينية ابى نواس :

ودار ندامى عطلوها وادلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

« يا ابا عثمان : هذا شعر لو نقر لطن ! » ...

ومجمل القول أن ابا نواس بسليقته شاعر مفطور على الدعابة ، ولئن جاءت دعابته ماجنة فى اغلب الاحايين الى درجة لا تسمح بتداولها ، فانها مع ذلك لا تشف إلا عن نفس صافية كريمة تنشد متع الحياة فى تهالك ابيقورى لا يلوثه لؤم ، وان عابه التدلى الجنسى الذى كان من الوان التظرف فى عهده . وهذه الدعابة بما فيها من عناصر الذكاء والتناول الفنى البديع والرشاقة النظمية ترغمنا على ان نحلها محلا من الاعتبار فى التاريخ الأدبى ، وإن لم يكن لها اى خطر فيما عداه

احمد زكى ابو شادي



ابن هانئ يحجّ

بقلم الشاعر أبي نواس

قال ابو عبد الله الجماز : « كان ابو نواس اظرف الناس منطقا ، واغزرهم ادبا واقدرهم على الكلام . وكان كلامه كانه شعر موزون » وقد شهد بذلك غير الجماز من الرواة الذين عاصروا ابا نواس وأطروا بلاغة نثره وفصاحة منطقه . ولذلك رأينا ان نعرض على القراء مثالا من ادبه النثري البليغ فى شيء من قصة حجه التي رواها بنفسه

قال ابو نواس :

حججت مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا بارض فزارة فى أوان أيام الربيع نزلنا منزلا بازاء باديتهم ذا روض أريض ، ونبت غريض ، وترب كترب الكافور حتى اكتست الارض بجميم(١) نبتها الزاهر ، وأتزرت بمحض عشبها الناضر ، والتحفت بانواع زخرفها الباهر بما يقصر عنه النمارق المصفوفة ، ولا يدانى زهرتها الزرابى (٢) المبثوثة ، فراقت بنضرتها الابصار ، وارتاحت لزبرجها القلوب ، واشتاقت الى نسيمها الصدور ، وابتهجت ببهائها النفوس ، فما لبثنا أن اقبلت السماء فاشفت بربابها . وتدانى من الارض ركام حتى اذا كان كما قال عبيد بن الابرص :

دان مسف فويق الارض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح (٣)

همت السماء برذاذ ثم بطش ، ثم برش ، ثم بوابل ، ثم هتنت حتى اذا تركت الربى كالوهاد رياً تقشعت ، فاقلعت وقد عادت الغدران مترعة تدفق ، والقيعان ناضرة تألق ، تحدق بحدائق مونقة ، ورياض رائقة ، وغياض من عرفها فائحة ، تتحاك بانواع النور الغض الذى اذا هممت بتشبيهه بشيء حسن اضطرك حسنه الى رده اليه ، فاذا تقت الى تضوع طيب لم تجد معولا فى الذكاء الا عليه ، فسرحت طرفى راتعاً فى أحسن منظر ، واستنشقت من رباها أطيب من المسك الاذفر : ثم قلت لزميلي ويحك امض بنا الى هذه الخيمات ، فلعلنا نلقى بعض من نؤثر عنه خبراً نرجع به الى بغداد . فلما انتهينا الى اولها اذا نحن بخباء على بابه جارية مبرقعة ترنو بطرف مريض الجفون وسنان النظر قد حشى

---

(١) الجميم النبت الكثير (٢) الزرابي البسط الفاخرة

(٣) اسف الطائر دنا من الارض (والسحابة دنت من الارض) والهيدب السحاب المتدلى

فتوراً وملىء سحراً ومدت يداً كأنها لسان طائر باطراف كالمدارى وخضاب كأنه عنم (١) ثم جاءت الريح فرفعت عن برقعها فاذا بيضة نعام تحت رئال (٢) فقلت لصاحبي: « أما والله انها ترنو عن مقلة لارقية لسليمها ولا براءة لسقيمها » فاستنطقها » قال : « كيف السبيل إلى ذلك ؟ » قلت : « استسقها ماء » فدنا منها فاستسقاها فقالت : « نعم ونعيم عين وان تزلتما فالرحب والسعة » ثم قامت تتهادى فى مشيها كأنها خوط بان أو قضيب خيزران تتثنى فتجر خلفها كالغرارتين ، فراعني والله ما رأيت منها فأتت بالماء فاخذته فشربت منه وصببت باقيه . ثم قلت : « وصاحبي أيضاً عطشان . فاخذت الاناء ودخلت الخباء ثم قلت لصاحبي متعرضاً لكشف وجهها : من الذى يقول :

اذا بارك الله فى ملبس　　فلا بارك الله فى البرقع
يريك عيون الدمى غرة　　ويكشف عن منظر اشنع

فمضت بسرعة وأتت ونزعت البرقع وتقنعت بخمار أسود وهى تقول :

الا حى ربى معشراً قد أراهما　　أمنا ولما يصدقا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة　　ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما
يذمان تلباس البراقع ضلة　　كما ذم تجر سلعة مشتراهما

فشبهت كلامها بعقد در وهي من سلكه ، فهن ينتثرن منه بنغمة عذبة ، رخيمة رطبة ، لو خوطب بها الصم الصلاد لانبجست لسهولة منطقها وعذوبة الفاظها كما قال ذو الرمة :

ولما تلاقينا جرت من عيوننا　　دموع كففنا غربها بالاصابع
ونلنا سقاطا من حديث كأنه　　جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع (٣)

ووجه يظلم فى نوره ضياء العقول ، وتتلفت فى روعته مهج النفوس ، وتعزب عن ادراكه اصالة الرأى ، ويحار فى محاسنه البصر . كما قال الأول :

فدقت وجلت واسبكرت (٤) واكملت　　فلو جن انسان من الحسن جنت

ولم أتمالك ان خررت ساجداً واطلت من غير تسبيح فقالت : ارفع رأسك غير مأجور وامض لشأنك غير موزور ، ولاتذما بعدها برقعاً ، فربما يكشف عما يطرد الكرى ، ويحل القوى من غير بلوغ مأرب ولا ادراك مطلب ولا قضاء وطر . . .

---

(١) العنم شجر له ثمر احمر يشبه به البنان المخضوب (٢) الرئال جمع رأل وهو ولد النعام (٣) الوقيعة نقرة في جبل او سهل يستنقع فيهـا الماء ويجتمع ، جمعها وقائع (٤) اسبكرت اعتدلت واستقامت

المناقضة فى شعر أبى نواس

بين ابن هانئ وشعراء عصره

بقلم الأستاذ الشيخ محمد عرفه

المناقضة فى الشعر - أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول ، والاسم منه النقيضة والجمع النقائض ، فمدارها على الابطال ، كأن يفتخر الشاعر بنفسه أو بقبيلته فيأتى الشاعر الآخر فيفسد على الشاعر الأول ما قال ويهجوه أو يهجو قبيلته ويبين مثالبها

ومثال ذلك ما يروى أن جريراً والفرزدق خرجا من العراق طالبى الرصافة لهشام بن عبد الملك ، وقد مدحاه فتلفتت ناقة الفرزدق فضربها بالسوط وقال :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

فناقضه جرير بقوله :

تلفت أنها تحت ابن قين الى الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك فى المواسم كل عام

والاسباب المولدة للمناقضة بين الشعراء كثيرة : منها المنافسة بين الشاعر والشاعر ، فتجدهما يتنازعان الشرف ، فاذا فخر أحدهما بنفسه أو قبيلته نازعه الآخر ذلك الفخر كما حكيناه عن جرير والفرزدق . ومنها اظهار القدرة على الشعر كما يروى ان جريراً والفرزدق والأخطل اجتمعوا فى مجلس عبد الملك فاحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار وقال لهم : « ليقل كل منكم بيتاً فى مدح نفسه فايكم غلب فله الكيس » فبدر الفرزدق فقال :

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فان تك زق زاملة فأنى أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير :

أنا الموت الذى يأتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال : « خذ الكيس فلعمرى ان الموت يأتى على كل شيء »

ومنها الخلافات الدينية فكنت ترى هذا الشاعر عباسياً مثلا يرى أن الحق فى الخلافة للعباس وأولاده وأنه لا حق فيها للعلويين ، فيقول :

انى يكون وليس ذاك بكائن　　لبنى البنات وراثة الاعمـــام

فيناقضه الاخر لانه شيعي يرى الخلافة فى على وأولاده فيقول :

لم لا يكون وان ذاك لكائن　　لبنى البنات وراثة الاعمام

للبنت نصف خالص من ماله　　والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللسهام وانمـــا　　صلى الطليق مخافة الصمصام

وقد تكون دواعى المناقضة غير ذلك

وقد ناقض أبو نواس شعراء عصره لمثل العلل التى قدمناها ، وكان فيه ما يغرى شعراء عصره بان يناقضوه ويغربه بأن يناقضهم

كان أبو نواس من العجم ومن موالى الحكميين باليمن ، وكان بعض المشهورين من الاعجام فى العصر العباسى يهربون من انسابهم فى العجم ويدعون لهم نسباً فى العرب لأن العرب كانوا هم الفاتحين ولهم دالة الفاتح وعزته والمغلوب مولع بالتشبه بالغالب

وكان أبو نواس من هؤلاء العجم الذين يريدون أن يكون لهم نسب فى العرب وقد خلط فى دعوته وتنقل فى الانساب ووضع نسبه حيث أراد . فادعى أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تيم اللات ، ثم هرب من ذلك وادعى للنزارية وانتسب للفرزدق ، ثم انقلب على النزارية وادعى اليمنية وكان اذا ادعى للنزارية هجا اليمنية وأفحش فى الهجاء واذا ادعى لليمنية هجا النزارية وأفحش فى هجائها واعتذر الى من هجاهم ، وكان فى كل ذلك يهيج شعراء القبائل التى يهجوها فيعارضونه ويناقضونه . فما هجا به النزارية قوله من قصيدة :

واهج نزاراً وافر جلدتها　　وهتك الستر عن مثالبها

وقد هجا خندف وأسدا بقصيدته التى أولها :

ألم تربع على الطلل الطماس　　عفاه كل اسحم ذى ارتجاس

فعارضه الحكم بن قنبر بقصيدة أولها :

دع الأطلال عنك أبا نواس　　عفاها كل اسحم ذى أرتجاس

وكان ابو نواس شعوبياً يبغض العرب وأساليبهم فى الحياة ويحب العجم ويتعاجم فى شعره وقد قال لى فى ذلك :

عاج الشقى على رسم يسائله　　وعجت اسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من اسد　　لادر درك قل لى من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفهما　　ليس الاعاريب عند الله من أحد

لاجف دمع الذى يبكى على حجر　　ولاصفا قلب من يصبو الى وتد

كم بين ناعت خمر فى دسا كرها　　وبين باك على نؤى ومنتفد

وقال :

فاسقنيها وغن صو تاً لك الخير اعجما
ليس فى نعت دمنة لا ولا زجر اشأما

فهجاه الرقاشى بقوله :

نبطى فاذا قيل له أنت مولى حكم قال أجل
هو مولى الله إذ كان به لاحقا فالله أعلى وأجل
واضعاً نسبته حيث اشتهى فاذا ما رابه ريب رحل

فرد عليه ابو نواس بقوله :

قل للرقاشى اذا جئته لومت يا أحمق لم أهجكا
لأننى أكرم عرضى ولا أقرنه يوما الى عرضكا
ان تهجنى تهج فتى ماجدا لا يرفع الطرف الى مثلكا
دونك عرضى فاهجه راشدا لا تدنس الأعراض من هجوكا

وكان ماجنا خليعاً متبطلا داعياً الى التبطل والمجون ، وكان ذلك يغرى أهل الجد بمناقضته فمن دعائه الى التبطل قوله :

دع عنك ماجدوا به وتبطل واذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل
لا تركبن من الذنوب صغيرها واعمد اذا قارفتها للانبل
وخطيئة تعلو على مستامها يأتيك آخرها بطعم الأول
ليست من اللاتى يقول لها الفتى عند التذكر ليتنى لم أفعل
حللت لا حرجا على حرامها ولربما حللت غير محلل

وقوله :

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان على مأثور القبيح

وقد ناقض أبو نواس نفسه فى كل ماقاله فى هذا الباب بقوله :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك أثام

وكان كثير الدعابة فى شعره يسخر من غيره من الشعراء . وكان لا بد لهؤلاء الشعراء ان يثأروا لأنفسهم ، وان ينقضوا قوله . وأخباره مع عنان جارية الناطفى فى ذلك كثيرة ، ولولا أنها أشعار فاسق ماجن ليس من خير للاخلاق فى ذكرها لأوردنا منها طرفا .

والذى تقفنا عليه دراسة مناقضات أبى نواس أنه كان خليعاً ماجناً مستهتراً شعوبياً يكره العرب وينتقصها ، شهوانياً حاد الشهوة معطياً هواه زمامه يرتع به كل مرتع ويرد به كل مورد

وهو بلا شك يمثل ناحية من نواحى العصر العباسى ويمثل طوراً بدأت تتطور اليه الحياة العربية ، ولا أقول إنه يمثل العصر كله لئلا أقع فى التناقض . فان أبا العتاهية كان فى هذا العصر أيضاً وشعره زاهد عفيف جاد محتشم مؤمن تقى ، فلو جرينا على قاعدة ان الشاعر يمثل عصره لكان العصر العباسى فى القرن الثانى عصر عفة وزهد واحتشام أيضاً فنخرج بالنقيضين وهما ان القرن الثانى قرن تهتك وفسوق ، وان القرن الثانى قرن عفة وزهد واحتشام . ومن بدائه العقول ان النقيضين لا يجتمعان ، فلنقتصد ولا نسرف ولنكتف بأن أبا نواس يمثل ناحية من القرن الثانى ومبدأ حياة كان الزمن يتمخض بها

ان القرن الثانى قد قوى فيه العنصر الفارسى ، وأخذ يزاحم العنصر العربى فى مناصب الدولة ، وقد بدأت قوته لأن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية كان له فيهما النصيب الأوفر ، فعرفت الدولة العباسية لهم حقهم فولتهم المناصب وشعروا بقوتهم لأنهم ثاروا ونجحت ثورتهم

تقلدوا المناصب الكبيرة فى الدولة فكان منهم الوزراء والقواد والكتاب وزاحموا العرب فى كل مكان بمنكب ضخم وقوة قاهرة ، فكان من الطبيعى أن يكون فى هذا العصر حزب كبير يحب الفرس ويكره العرب ويذم مذاهب هؤلاء فى الحياة ويمدح مذاهب الأولين فيها ، وكرهوا كل ما هو عربى لأنه عربى ، وكان أبو نواس يمثل هذا الحزب الفارسى أصدق تمثيل فذم العرب وعيشها ومنهجها فى الحياة حتى طريقتها فى شعرها من وصف الديار وبكاء الاطلال ، ونظن أنه ما تنقل بنسبه فى القبائل العربية الا ليهجو القبائل الأخرى ، وقد تنقل فيها جميعها ، وهجاها جميعها ، وفعل ذلك ليحمل هجاؤه اياها محمل التعصب لقبيلة عربية ضد قبيلة عربية ، ولا يحمل على أنه تعصب من الأمة الفارسية ضد الأمة العربية ، وقد تمكن بهذا الدهاء السياسى ان يهجوها جميعها ، وان يحملها على رواية هجائه حتى انه هجا نزارا التى منها قريش والهاشميون والعباسيون خلفاء هذا الزمان ، وليست عندنا المصادر اللازمة ولا الوقت الكافى لنعلم أكان ذلك منه ارضاء لعاطفته الشخصية ، أم كان تنفيذاً لمؤامرة سرية لثلب العرب والحط منهم ليسهل للعنصر الفارسى ان يرقى الى ما يطمح اليه من الاستبداد بالملك والسلطان . وسننقل لك جملة صالحة من هذه القصيدة التى هجا بها نزارا لتعلم الضغينة التى كان يحملها لنزار والعرب والحيلة التى تمكن بها من هجائها والوسيلة التى توسل بها لارضاء الخليفة عن هذا الاقذاع، ولكنها لم تجز عليه فحبسه فيها وأولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

يقول فيها :

فافخر بقحطان غير مكتئب فحاتم الجود من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها ان زلت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والاشتران وزيـــد الخيل أسد لدى ملاعبها

أحبب قريشاً لحب أحمدها ... واعرف لها الجزل من مواهبها
ان قريشا اذا هى انتسبت ... كان لهـا الشطر من مناسبها
ان فاخرتنا فلا افتخار لهـا ... الا التجارات من مكاسبهـا
وانها ان ذكرت مكرمة ... جاءت تجاراتهـا بغالبها
واهج نزارا وافر جلدتهـا ... وهتك الستر عن مثالبهـا
هل يغسلن عن نسائهم ... ما أفرغ الاسد فى كعائبها
أما تميم فغير داحضة ... ما سلسل العبد فى شواربهـا
أول مجـد له وآخره ... ان ذكر المجد قوس حاجبها
وقيس عيـلان لا أريد لها ... من المخـازى سوى محاربها

ومن جهة أخرى نرى ان الدولة الاسلامية قد فرغت فى هذا العصر من أمر الفتوحات ومن المشاغل الخارجية ، وقد فتح الله عليها ملك الاكاسرة والقياصرة وأورثها أرضهم وزروعهم وممالكهم فبدأت تنغمس افراد منها فى النعيم ، ويدب اليهـا الترف ، وما يتبعه من شهوات ، والحزب الفارسى الناقم على الدولة القائمة كان له دخل كبير فى تعجيل الانغماس فى الترف الى هذه الدولة فقد كان من تلك الدولة الفارسية القديمة وقد كانت هذه الدولة قطعت أدوار الامم وبلغت شيخوختها وهرمها وفيها عوامل الضعف والفناء التى تصيب الامم فى أدبارها ، ففيها الترف والانغماس فى النعيم ، وفيها التفنن فى الشهوات واللذائذ وقد كان هذا الحزب لا يسوءه ان ينتشر الترف فى العنصر العربى ، بل ربما عمل لذلك لانه يعلم أن الانغماس فى الترف والشهوات البدنية أكبر عامل فى انحلال الدول وضعف الامم وخراب الممالك ، وهذا مما يساعد على ما يصبو اليه من نقل الحكم الى العنصر الفارسى وكان ابو نواس يمثل هذه الناحية

كان يقابل هذا الحزب الماجن الخليع الشعوبى جمهرة كبيرة فى هذا العصر ، فيها الفقهاء والمحدثون والعباد والزهاد وطبقات العامة ، بل كان فيها من الشعراء أنفسهم كأبى العتاهية فهو فى شعره يميل الى الجد والخلق الكريم والزهد ومكارم الشيم ونبيل الصفات ، وكان كثيراً ما يلوم أبا نواس على استهتاره ومجونه ، ولما أكثر على أبى نواس فى العذل قال له أبو نواس :

لا تنتهى الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منهـا لها زاجر

ومع ذلك فأبو نواس لم يبلغ هذا المبلغ الذى تمثله الحكايات المذكورة فى كتب الادب فاننا نعتقد ان شخصية ابى نواس كشخصية جحا نحلها الناس كثيراً من الاخبار والنوادر والاشعار

محمد عرفة

اساتذة ابي نواس
في الجد والهزل

اكبر اساتيذ ابى نواس وأوضحهم أثراً فيه « والبة بن الحباب » وكان من فحول شعراء عصره وقد ضاع معظم شعره ولم يعن الادباء بالبحث عنه . وسبب ذلك على ما نظن ان اكثره فى المجون. ومما يؤثر عنه أنه كان هجاء قاذعا لا يكاد أحد يسلم من لسانه . قيل انه هجا بشاراً وابا العتاهية فانبريا له يقذعانه بافحش ما نظمه شاعر فلم يكن له بد من الفرار منهما

وقد ذكروا فى اجتماع ابى نواس بوالبة هذا أقوالا كثيرة ، أقربها الى الصدق ان والى الاهواز للمنصور (والاهواز مسقط رأس ابى نواس) رغب فى عطر فلم يجد من يعمله له . فبعث الى البصرة واستقدم منها عطارين فيهم ابو نواس . وقدم عليه والبة بن الحباب الاسدى الشاعر (وكان ابن عم الوالى) فرأى أبا نواس فاستحلى قدمه وأعجب بظرفه . فقال له : انى أرى فيك مخايل الفلاح وارى لك ألا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصحبنى حتى « أخرجك » .فقال ابو نواس : « ومن أنت » ؟ قال : « والبة » فقال ابو نواس : « انا والله — جعلت فداك — فى طلبك . وقد اردت الخروج الى الكوفة والى بغداد شهوة للقائك ولابيات سمعتها لك » . ثم ذكر له تلك الابيات . فمضى والبة بتلميذه الى منزله

وقد أخذ التلميذ عن استاذه كثيراً وتخرج على يديه فى فنون الادب واللغة حتى حذقها . ثم استأذنه فى الخروج إلى البادية مع وفد من بنى أسد ليتقن العربية والغريب . وأقام بالبادية سنة ثم عاد فودع والبة ونزح إلى بغداد

واذا كان والبة أقدم اساتيذ أبى نواس فقد كان « خلف الاحمر » أحسن أولئك الاساتيذ تأديباً لابى نواس ، اذ كان اكبر رواة عصره وأفصح أئمة زمانه . وقد درس ابو نواس عليه طويلا وتخرج على يديه فى معانى الشعر وأساليبه . وأنس « خلف » من تلميذه صفات الشاعر فلما استأذنه فى نظم الشعر نصح له ان لا يفعل حتى يحفظ الف مقطوع للعرب مابين ارجوزة وقصيدة .فغاب ابو نواس عنه مدة ثم حضر اليه وقال : « لقد حفظتها » فقال خلف : « انشدها » فانشده اكثرها فى عدة أيام ثم سأله ان يأذن له فى نظم الشعر . فقال خلف : « لا آذن لك الا ان تنسى هذه الاراجيز كأنك لم تحفظها ، فقال ابو نواس : « هذا أمر يصعب علىّ فانى قد أتقنت حفظها » . فقال خلف :

« لا آذن لك إلا أن تنساها » . فذهب ابو نواس وخلا بنفسه . وأقام مدة حتى نسيها . ثم حضر فقال لخلف : « قد نسيتها حتى كأن لم اكن حفظتها قط » . فقال له خلف : « الآن انظم الشعر ! »

ولا نعلم الحكمة فى أمر خلف لتلميذه بأن يحفظ الف مقطوعة ثم أمره له بأن ينساها الا أن يكون مراده من ذلك ترسيخ اساليب النظم فى نفس تلميذه ثم منعه من السرقة والاقتباس . وقد ذكر ابن منظور صاحب لسان العرب أن ابا نواس كان يقول

« ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال ؟ وانى لاروى سبعمائة ارجوزة ما تعرف »

ولا ريب فى أن « خلفاً » كان يعطف على تلميذه كل العطف بل كان اخلص اساتيذه له . وقد اعترف ابو نواس بفضله عليه . يدلك على ذلك ما نقل عن بعض الرواة من أن « خلفاً » أراد مرة أن يسمع مراثى اصحابه فيه قبل أن يموت . فجاءه ابو نواس يتلو عليه مرثية طويلة أعجب بها خلف وقال له : « احسنت ! » فقال له ابو نواس : « يا ابا محرز . مت ولك عندى خير منها » فقال له خلف : « كأنك قصرت ؟ » قال : « لا ولكن أين باعث الحزن ؟ »

وفى الحقيقة ان ابا نواس رثاه عند موته بمرثية بليغة هي من أجود مانظمه . فسجل بذلك عرفانه لفضل استاذه عليه

اساتذة آخرون

ذكرنا فيما تقدم من اساتيذ ابى نواس والبة بن الحباب الاسدى وخلفا الاحمر ولم يكونا استاذيه الوحيدين ، بل قد كان له غيرهما كثيرون ممن لقنوه الشعر وعلوم الدين واللغة والادب . ذكر بعض الرواة ان أبا نواس استأذن استاذه « والبة » فى الخروج الى البادية لتقويم معوج لسانه ولتتمكن منه اللهجة العربية فاذن له . فخرج مع وفد من بنى أسد وبقى معهم سنة كاملة . الا انه لم يقنع بذلك بل تخلف الى ابى زيد امام النحو فى ذلك العصر فقرأ عليه غريب الالفاظ وكتاب سيبويه . وأراد أن يتخرج فى الحديث أيضاً فطلبه على يد عبد الواحد بن زياد والقطان والسمان وغير هؤلاء من كبار الائمة فى ذلك الزمن . وقد ظهر تأثير جميع هؤلاء فيما نظمه . وهذا سبب ماتراه من تشعب نواحى منظومه . وقد وهم من زعم أن شعره ينحصر فى المجون فقط . بل ليس المجون احسن مانظم فيه . فقد علا كعبه فى جميع فنون الادب

واذا طوينا الكشح عن نزعة ابى نواس المجونية لم تبق لنا مندوحة عن الاعتراف بما بلغه من علو المرتبة فى الشعر ، مما يدل على ان تعهد اساتيذه اياه واشرافهم على تهذيبه أسفرا عن أطيب الاثر فيه حتى لقد شهد له الكثيرون من فحول الادب فى عصره

التصوير فى شعر ابن هانئ

أبو نواس مصور ماهر

بقلم الأستاذ طاهر أحمد الطناحى

التصوير اليدوى نوع من التصوير الشعرى ، والمصور شاعر ، ما دامت الفنون الجميلة تنبع من نبع واحد هو الحياة . وترمى إلى غاية واحدة هى الجمال . لكن الشعر أوسع مجالا للخيال من سائر الفنون ، والشاعر أقدر على التعبير عن خوالج نفسه ، لان دائرته أرحب من تلك الدائرة التى يعمل فيها المصور على لوحته ، ليرسم حالة من حالات النفس ، أو صورة واحدة من صور الحس . أما الشاعر ، فاذا عجز فى بيت أو بيتين عن التعبير عن الصورة كاملة استطاع ان يعطيكها فى ابيات أخرى

تلك حقيقة لا مجال للشك فيها . وهى تربنا كيف يتبارى الفنانون من الشعراء والمصورين فى مختلف العصور فى قوة التعبير ، وبلاغة الاداء ، وصدق الشعور ، وسمو الخيال

متى وجد التصوير الشعرى

وقد وجد التصوير فى الشعر منذ وجد الشعر ، لكنه تطور من الضعف الى القوة ، ومن البساطة الى التركيب تبعاً لتطور الحياة الاجتماعية ، وتعدد صورها ، وتباين ألوانها ، وكثرة ما خالطها من انواع الترف ، وما ابتكره الذهن البشرى مما لم يكن معهودا فى سابق الاجيال

وجد التصوير فى الشعر الجاهلى قبل أن توجد الحضارة الاسلامية ، وقبل ان يوجد أبو نواس. فوصف الجاهليون الديار والاطلال ، وصوروا الابل والخيل وأوابد الوحوش ، وجوارح الطير ، وافتنوا فى تصويرها . وصوروا حياة البادية من خيام وفلاة وانواء ورياح وسهل وجبل . لكن هذا التصوير كان كحياتهم بسيطا ، إلا ما ندر من اقوال الشعراء الذين اقتربوا من الفرس او خالطوهم فى جاهليتهم . فلما انتقلت الدولة العربية من غضاضة البداوة الى غضارة الحضارة ، ورأى الشعراء من ألوان العيش وصور المجتمع ما لم يكن لهم به عهد فى الدولة الاموية ولا فى صدر الاسلام وعصر الجاهلية ، اخذوا يفتنون فى فنون الكلام ، بل كرهوا ان ينسجوا على منوال من سبقهم ووجدوا فى حرية القول متسعاً للتصوير الجديد وابتكار الاخيلة وتوليد المعانى . وكان فى رأس هؤلاء أبو نواس . فقال فى الخروج على طريقة السابقين :

مالى بدار خلت من اهلها شغل ولا شجانى لها شخص ولا طلل
ولا رسوم ولا أبكى لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل
ولاقطعت على حرف مذكرة فى مرفقيها إذا استعرضتها فتل
بيداء مقفرة يوماً فأنعتها ولاسرى بى فاحكيه بها جمل

إلى ان يقول :

لا الحزن منى برأى العين اعرفه وليس يعرفنى سهل ولا جبل
لا انعت الروض إلاما رأيت به قصرا منيفاً عليه النخل مشتمل

أثر الفرسى فى التصوير

وكان الفضل فى الخروج على هذه الطريقة للفرس الذين كانت لهم الغلبة فى ذلك الوقت على العنصر العربى . ولقد كان التصوير احد الفنون البارزة فى الحضارة الفارسية . وقد تغلغل فى كل شىء من حياتهم الاجتماعية والادبية ، بل الدينية ايضاً . وظهرت آثاره فى حياة الدولة العباسية وما استخدمته من رياش واثاث وديار ومتاع ، فليس غريبا ان يتأثر ابو نواس بهذه البيئة الفنية . ونسمعه ينوه بالتصوير الفارسى فى قوله :

تدور علينا الكأس فى عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مهى تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

أنواع التصوير الشعرى

والتصوير الشعرى أصعب أبواب الأدب وهو أنواع : تصوير المرئيات ، وتصوير الحالات النفسية ، وتصوير معانى الاشياء ، وتصوير الحوادث . وكل منها إما ان يكون بسيطاً أو مركباً . وأضعف الانواع التصوير البسيط للمرئيات كقول أبى نواس يصف الخمر :

حمراء صفراء عند المزج تحسبها كالدر طوقها نظم من الحبب

ويضيق المقام بنا لو عددنا هذه الانواع فى شعر أبى نواس . ونقول بالاجمال إنه أتى فى تصوير الخمر بكل ما يخطر لشاعر على بال . ولكننا نلاحظ أنه فى جميع وصفه وتصويره للخمر اذا استثنينا الحالات والحوادث التى قيلت فيها ـ ليست مبتكرة ، وان أبا نواس سار فيها على نهج من سبقه على الرغم من ذمه فى شعره للتقليد ، فقد سبقه الى وصفها وتصوير مناقبها الخليفة الوليد بن اليزيد ، ومن قبله عدى بن زيد والاعشى والاخطل . بل يقول الرواة ان أبا نواس سلخ اكثر تصويره للخمر من اشعار هـــذا الخليفة ومن معاصره حسين الضحاك . غير أننا

لا نغمط أبا نواس حقه فى هذا المجال . فقد كان خصباً فياضاً إلى حد لم يعرف لشاعر غيره .. وأتى فى تصوير الخمر ووصفها بآلاف الابيات ، وإن تكررت فيها الصور المتشابهة

وثبات فى تصوير الخمر

ولأبى نواس وثبات فى تصوير حبه للخمر ، وهيامه بها هياماً لم يسبقه الى تصويره أحد من قبله حيث يقول :

ما زلت أستل روح الدن فى لطف   واستقى دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسد   والدن منطرح جسما بلا روح

فأى تصوير لهذه الحالة أبرع من هذا التصوير الذى وسعه البيتان على إيجازهما ؟ وأى ريشة مبدعة تصور هذا المدمن الهائم الذى تشبث بالدن يعب منه الشراب عباً ويمتص دمه فلا يترك فيه قطرة ، ويستل روحه ، ويضيفها الى روحه ، فيصبح جسداً بروحين والدن رفاتاً بالياً لا أثر فيه للحياة . وهل يستطيع مصور أن يصور جسداً بروحين ؟ .. لا أدرى .. !

ولست بسبيل خمرياته حتى أسهب فيها ولكنى أقول فى معرض التصويران نبوغ أبى نواس فى هذا النوع يبدو جليا فى صدق احساسه وشمول عاطفته وامانته فى نقل الحوادث واستيعابه للمعانى والاحوال بلباقة وخفة تنسيك تكرار الصور المماثلة ، وتعدد الاشكال المتشابهة

بين ابى نواس وابن الرومى

وقد اشتهر ابن الرومى فى هذا الباب (التصوير) باستيعابه للمعانى واستيفائه لها وتعقبه لاحوال الاشياء حتى تأتى الصورة كاملة . وابن الرومى قد ولد وفاء بعد ابى نواس بنحو ٢٦ سنة ، واشاد الرواة والادباء بدقة تصويره ، ولا سيما فى هذه الأبيات التى يصور فيها خبازاً يقوم بعمله :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتهـا فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة البحر يرمى فيه بالحجر

فاتى ابن الرومى فى هذا التصوير المركب بمنظرين : أحدهما الخباز وهو يتناول قطعة العجين فيدحوها حتى تصير رقاقة مستديرة وثانيهما منظر الماء وقد ألقى فيه بحجر فحدثت فيه دوائر . ومن هذين المنظرين أعطانا ابن الرومى صورة هذه الحادثة كاملة بما فيها من حركة سريعة لكن ابا نواس قد سبق ابن الرومى الى التصوير المركب بما يستأثر فيه وحده بالاعجاب الكبير . وذلك حين يقول فى تصوير أحد البخلاء :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه ويجلسه فى حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ففى هذه الابيات الأربعة كوميديا ذات ستة مناظر : منظر « سعيد » وهو يقلب رغيفه تقليب الحريص المعجب الذى يقلب جوهرة سمينة . ثم منظره وهو يلاعبه ويناغيه مناغاة الأم لطفلها الوحيد . والمنظر الثالث وهو يخرجه من كمه بين لحظة واخرى ليشمه فقط لا ليأكاه لأنه يبخل به حتى على نفسه . والمنظر الرابع وهو يجلسه فى حجره ويحدثه ويناجيه مناجاة المحب الواله ، والمنظر الخامس ثورته كما يثور المجنون حين يأتى المسكين يطلب لقمة منه ، والمنظر السادس وهو يكر عليه بالسوط ويلاحقه فى الطريق حتى يكسر رجله . ولا يكتفى بذلك بل ينتف شاربه أيضا . . !

ما هذا ؟ . . أليست هذه براعة التصوير ؟ . .

ويقول ابو نواس فى هذا النوع من التصوير المركب ، وهو أعلى انواع التصوير :

رأيت « الفضل » مكتئبا يناغى الخبز والسمكا
فأسبل طرفه لما رآنى قادما وبكى
فلما ان حلفت له بانى صائم ضحكا

وليتمثل القارىء هذا « الفضل » الذى مر به ابو نواس ، وهذا « الخباز » الذى مر به ابن الرومى ، وليقارن بين حالتى كل منهما ، ثم بين موضوعى الصورتين . فيرى ان الصورة اوالصور التى رسمها النواسى ادق واصعب من الصورة التى رسمها ابن الرومى . فابو نواس صور حالتى الفضل الحسية والنفسية ، ورسمهما مزيجا واحدا فى شكل تهكمى غريب يعجز الرسام عن رسمه . أما ابن الرومى فقد صور حالة حسية واحدة ، استعان فيها بالتشبيه بشىء آخر . ولولا هـذا التشبيه بلجة البحر يرمى فيه بالحجر لما وضحت الصورة

التصوير فى الطرديات

والتصوير فى طرديات أبى نواس المقام الأول . والطرديات هى أشعاره التى نظمها فى الصيد ووصف أدواته وحيواناته كالكلاب ، والبزاة ، والقسى ، والسهام والطرائد . وقد أجاد فى تصويرها بما يجعله فى الصف الأول بين شعراء الجاهلية الذين امتازوا فى هذا النوع

فانت تقرأ له تصويره لكلب الصيد ، فلا تشك ان هذا الكلب الذى حوى هذه الصفات الكاملة ، والذى سعد أهله من كده ، وسعدت جدودهم بجده ، والذى كل خير عندهم من عنده ،

والذى يظل مولاه له كعبده - نقول لا تشك فى أن هذا الكلب كان خير كلاب العالم طراً

التصوير الغزلى

ولم يخل باب من ابواب الشعر التى طرقها ابو نواس من التصوير البديع . ففى مدائحه ومراثيه بل عتابياته وزهدياته الوان من التصوير تفوق فى الكثير منها على غيره من الشعراء . دع غزل المؤنث والمذكر ، فقد كثر فيه التصوير . ونذكر من تصويره فى غزل المؤنث قوله ، وهو من التصوير المركب :

وعاشقين التف خـــداهما عند التثام الحجر الاسود
فاشتفيا من غير ان يأثما كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند
قالا كلانا ساتر وجهه مما يلى جانبــــه باليد
نفعل فى المسجد مالم يكن يفعله الابرار فى المسجد

ذلك تصوير لا يخطر الا على بال شاعر عبقرى يسمو به الخيال ، فيأتى من الصور المبتكرة ما يملك اللب ويستحث النفس الى الاعجاب . ومن أين عرف المحب انه سيكون مع حبيبه فى هذه اللحظة يقبلان الحجر الاسود بالكعبة وأى مصادفة هذه التى جمعتهما فى هذا الوضع الجميل الذى يشتهيه العاشقون لولا خيال ابى نواس ، وتصوير ابى نواس ؟ !

ومن التصوير الذى ينسجم مع تصوير الافلام الحديث ما نظمه ابو نواس فى هذه الحادثة التى وقعت بينه وبين حبيبته جنان ، فقال :

كتبت على فص لخاتمها من مل محبوباً فلا رقدا
فكتبت فى فص ليبلغها من نام لم يعقل كمن سهدا
فحته ، واكتتبت ليبلغنى لانام من يهوى ولا هجدا
فحوته ، ثم اكتتبت : انا والله اول ميت كمدا
فحته، واكتتبت تعارضنى والله لا كلمته ابدا

أليست هذه عدة صور تحتاج إلى عدة لوحات بل تحتاج الى « فلم » طويل ؟ . .

إن أبا نواس كان مصوراً ماهراً ، استطاع ان يرسم بقلمه فى بساطة ودقة صوراً كاملة ، لحياته فى الجد واللهو ، وللبيئة التى عاش فيها ، والعصر الذى ظهر فيه . وكانت ابرز صفة فيه جرأته الفنية ، وحريته فى التصوير ، وهى حرية كان ينشدها الفنانون فى ذلك العصر ، كما ينشدها الآن الفنانون فى العصر الحديث

طاهر احمد الطناحي

« كان اول اتصالى بالخلفاء ان الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « اطلب لى رجلا يصلح للحديث وللسمر » فخرج هرثمة فسأل . فدله بعض الناس على فادخلنى عليه . فسألنى الرشيد عن اسمى واسم ابى فاخبرته . ثم قال لى : يا حسن أرقت فى هذه الليلة . فانشدته ابياتاً اعجبته وأمر لى من اجلها بمال . وكان ذلك سبب اتصالى به »

وانما حصل ابو نواس على مكانته عند الرشيد لانه كان إذا بكر اليه سأل خواص اهل بيته عما يكون فى نفسه او يكون جرى له فى ذلك الوقت . ثم ينشده اشعاراً لطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً . وكان يفعل ذلك فى ساعات سرور الرشيد او ساعات حزنه فيزيد فى سروره او يروح عنه

ومع ذلك ما كان الرشيد ليرضى عنه دائماً لانه كان ماجناً وسكيراً الى الدرجة القصوى . وقد امر بسجنه غير مرة وكان فى كل مرة يعفو عنه . ولكن ابا نواس قضى فى المرة الاخيرة فى السجن زمناً طويلا راسفا فى الاصفاد حتى توفى الرشيد وولى الخلافة بعده ابنه الامين . وفى ذات يوم غنت امامه احدى جوارى القصر ابياتاً نظمها أبو نواس يستعطف بها الامين . فلما فرغت من غنائها قال لها الامين : « لمن هذه الابيات ؟ » قالت : « لابى نواس » قال : « فماذا فعل ؟ » قالت : « انه محبوس » فامر بأن تكسر قيوده . فخرج ابو نواس من السجن . ومن ذلك اليوم توثقت العلاقة بينه وبين الامين وأصبح نديمه

بدء العلاقة بينهما

وليست هذه بدء العلاقة بين الامين وابى نواس ، فقد بدأت بينهما قبل ذلك بزمن . وتفصيل ذلك أنه لما قدم ابو نواس بغداد ورغب فى التقرب من الرشيد لم يتمكن من ذلك فى اول الامر لان الرشيد مع ميله الى اللهو والطرب كان يكره من ابى نواس اغراقه فى المجون . فولى أبو نواس وجهه شطر الامين ولى عهد الرشيد وكان اذ ذاك غلاما يافعاً . فعلقه وأولع به . وكان الكسائى يقوم على تهذيبه . فطلب اليه ابو نواس ان يأذن له فى تقبيله وان يحتال له على ذلك . فابى الكسائى مخافة ان يبلغ الخبر هرون الرشيد . فالح أبو نواس عليه وتهدده بأن يهجوه ان هو لم يأذن له فيما أراد . فاتفق معه الكسائى على ان يغيب اياماً ثم يحضر كأنه قادم من غيبة فيسلم على الكسائى ويعانقه ثم يلوى على الامين فيسلم عليه ويعانقه . وبذلك يتم له ما يريد . فرضى أبونواس بذلك وفيه قال :

قد احدث الناس ظرفا يعلو على كل ظرف
كانوا إذا ما تلاقوا تصافحوا بالاكف
فاحدثوا اليوم رشف الـ خدود والرشف يشفى

على ان ابن طاهر وغيره من مترجمي ابى نواس أنكروا هـذه الرواية بحجة أن ابناء الخلفاء ما كانوا يعانقون أحداً من الرعية . وانكارهم هذا لا يستند الى دليل قاطع . وعليه فان الحادث الذى رويناه يعتبر بدء اتصال ابى نواس بالامين . وقد توثقت العلاقة بينهما بمرور الزمن وزادها توثقاً ما بين الاثنين من التشابه فى الميول والاهواء وما اشتهر عنهما من الاندفاع فى المجون . لذلك اصبح الامين لا يطيب له عيش الا بصحبة ابى نواس ومنادمته ، فقربه اليه . وقد ذكر اكثر المؤرخين ان الامين كان خليعا منذ نعومة اظفاره فكان يجمع الجوارى فى بيته ولا يكترث لشىء حتى قال عنه ابن الاثير : « لم نجد ما يستحسن ذكره للامين »

وكان ابراهيم المهدى المغنى المشهور فى ذلك العصر لا يفارق مجلسه ، قيل انه دخل على الامين فى صباح يوم فلم ينتظر الامين حتى يحييه ، بل قال له : « اخرج عودك وغن » فاخرج ابراهيم العود وغنى الابيات التى مطلعها :

وكاس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

فاستوى الامين جالساً وطرب طربا شديداً وقال : « احسنت ياعم ،وأحييت لى طربا » ودعا برطل من الخمر فشربه على الريق ! ...

وهذا الحادث يصور لك مشهداً من مشاهد حياة ذلك الفتى الخليع

الامين وأبو نواس

يتباريان فى شرب الخمر

ومما ذكره ابن منظور فى كتابه « أخبار أبى نواس » ان الامين اصطبح يوماً مع ندمائه وأبو نواس عنده فقال : « نريد ان نشرب اليوم كلنا لننظر أينا اجود شربا . ولأجود القوم شربا حكمه » فلم يزالوا يشربون الى نصف الليل ثم هوم القوم سكراً (اى نعسوا) وبقى الامين وأبونواس وكوثر يشربون . ثم نام الامين وكوثر وبقى أبو نواس وحده . فلما لم يجد له مساعداً أغفى غفوة ثم انتبه ووضع الشراب بين يديه . ثم قام الى الندماء يحركهم واحداً واحداً ليشربوا معه . فوجدهم موتى لا حراك بهم . فقال ليس لى الا محمد (يريد الامين) فجاء الى مرقده وصاح به : « ياسيدى يا أمير المؤمنين ، ليس هذا من الانصاف . نحن نشرب وانت نائم ؟ » فانتبه الامين وقعد يشرب معه وهو يقول له : « ويلك . ألست من الناس ؟ لا تنام مع ما قد شربت ؟ » فقال أبو نواس : « ياسيدى . أليست لذة الشراب تقوم مقام لذة النوم ؟ » فشربا باقى ليلتهما . ثم أراد الامين ان ينام بعد ان سكر فقال أبو نواس : « على رسلك » ثم أنشده أبياتا نفحه الامين من أجلها الف درهم ومثلها من اجل ما شرب

موقف ابى نواس
فى الفتنة بين الامين والمأمون

ولما كثر احتجاب الامين عن الرعية بسبب انصرافه الى اللهو والشرب قال له اسماعيل بن صبيح وكان كاتب سره : « يا أمير المؤمنين . ان قوادك وجندك وعامة رعيتك قد خبثت نفوسهم وساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرون من احتجابك عنهم ، فلو جلست لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك فان فى ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآمالهم » فجلس فى مجلسه واذن للناس عامة . فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم . وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فانشدوا . فلم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل إلا أمر بالسكوت ومنع من القول . وكان فيمن قام أبو نواس فقال : « يا أمير المؤمنين هؤلاء الشعراء أهل حجر ومدر ، وابل وبقر ، قد جفت الفاظهم وغلظت معانيهم ، ليس لهم بصر بمدح الخلفاء ونشر مكارمهم . فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لى فى انشاده فليفعل » . فاذن له فانشده قصيدة من خمرياته . فقال له الامين : « ألم انهك عن شرب الخمر ؟ » قال : « بلى يا امير المؤمنين . والله ما شربتها منذ نهيتنى عنها ومنعتنى من شربها »

أما منع الامين لابى نواس من شرب الخمر فسببه قيام الفتنة بين الامين وأخيه المأمون . وكان أولهما من أهل السنة يناصره العرب . والثانى من أهل الشيعة يناصره الفرس من أجل أمه . ومع ان أبا نواس كان يكره العرب ويحتقرهم ويعطف على الفرس الا أنه كان مع الامين على المأمون لان حياة السكر والخلاعة والمجون كانت تجمع بين الاثنين . وفوق ذلك كان الشيعة يتشددون فى الحكم على من يشرب الخمر ويقولون بأنه لا أمل للسكير فى عفو الله وغفرانه . وهو مذهب ما كان ليروق أبا نواس الذى كان يعتقد أن الحياة فرصة يجدر بالمرء اغتنامها والتمتع بلذاتها ، فلايدع شيئا يحول بين نفسه وبينها . وكان يعتقد أنه مهما عظم ذنب المرء فان عفو الله أكبر وأعظم وفى ذلك يقول :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الاشياء عن أصغر عفو الله اصغر

فرجل هذه عقيدته فى الحياة وفى وجوب اغتنام فرص لذاتها ، وهذا مبلغ امله فى عفو الله وغفرانه ما كان ليطمئن الى الشيعة أو يعطف على أنصارها . ومن ثمة انحيازه الى الامين ومناصرته اياه على المأمون

(. . .)

الجانب الفلسفي في حياة ابن هانئ

فلسفة اللذة وأثرها في شاعر الأمين

بقلم الأستاذ خليل شيبوب

بيئة ابي نواس الفلسفية – نظرات في ديوان ابي نواس – رأى ابي نواس في الدنيا – هل تزندق ابو نواس

لعلنا نظلم أبا نواس إذا ذهبنا نستقرىء فى شعره بعض مذاهب الفلسفة التى نلم بها الماما فى شعر المتنبى، ونخوض فيها خوضاً فى شعر المعرى. ذلك أن المتنبى والمعرى كانا كثيرى الجد صاحبى رأى وتفكير. راعهما سر الحياة وسر الموت فطاف الاول بهما طوافا ووقف الثانى عليهما عمره كاملا، ولما اقعده العجز عنهما أرسل صرخاته اليائسة مدوية فى العصور

أما أبو نواس فلم يكن يعبأ بالحياة ولا يفكر بالموت إلا تفكير رجل ساخر طوراً وطور مسلم لله موضوع الآخرة وما اليه. فهو ينغمس فى الحياة انغماسا، بل يعب منها عبا سواء لديه الفضيلة والرذيلة والحلال والحرام

بيئة ابى نواس الفلسفية

ولقد نشأ أبو نواس فى بيئة فارسية تأخذ بمبادىء الديانة الزرادشتية من اباحة النبيذ والغناء والمجون ما طاب منها وما خبث، سواء اقصداً أم اسرافا، وصحب فتيا عشراء السوء امثال والبة بن الحباب وحماد عجرد ويحى بن زياد ومطيع بن اياس، وكلهم فاجر زنديق متهم فى دينه كما يقول صاحب الاغانى، ولكن كلهم شاعر لبق. فاعجب بهم أبو نواس ودرج على سنتهم من التمادى فى التهتك والفجور. وكان أبو نواس ألمع ذكاء وأقوى عبقرية منهم جميعا وهو اشعرهم بلا ريب. وقد عاش أبو نواس فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة فأخذ النحو وعلوم اللغة عن سيبويه وخلف الاحمر، وأحاط بكل ما وصل اليه عصره من ثقافة فارسية وهندية ويونانية وعربية. ولقد شاعت فى عهده مبادىء مانى وزرادشت فى بغداد وترجمت السند هند من الهندية كما ترجمت بعض كتب اليونان امثال المجسطى فى الفلك ومنطق ارسطو. وكان الشعر والغناء قد قطعا شوطا عظيماً من التجديد والرقى كما تركزت علوم الدين من حديث

وفقه وتفسير واتسعت اتساعا رائعا وساد فى العراق مذهب الامام أبى حنيفة وذاع فيه موطأ الامام مالك وشرع الامام الشافعى فى نشر مذهبه

لهذا جميعه كانت بغداد تموج بالشعراء والفقهاء والرواة والمتفلسفين وأشياع الديانات غير الاسلامية وتزدحم بالفرس والهنود والروم والصقالبة الذين تألبوا على العرب للاسباب السياسية المعروفة فنشأت الشعوبية

وكان الاسلام دين الدولة ومن المسلمين سنيون وشيعيون . وهناك الذميون من نصارى ويهود وغير الذميين ممن أظهر الاسلام واضمر ديانة الفرس ، وهؤلاء هم الزنادقة وغيرهم من الذين يعتقدون بالجبرية والقدرية وغير هذا كثير

فى ديوان ابى نواس

ولا نعرف ديواناً كديوان أبى نواس يهتدى مطالعه الى هذا الخليط من اصطفاق مدنيات ، وتضارب ديانات بما يمر به من معان وألفاظ تفتح آفاقا واسعة على التاريخ وعلى علوم العصر وحضارته وتدل دلالة صريحة على ثقافة أبى نواس المتنوعة . فاذا برم بأحد المتفلسفين من أهل زمانه قال مجملا :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وليس كالعبقرية لتوحى مثل هذا المعنى الرائع الذى طابقه فيه شكسبير بعد قرون حين قال فى رواية هملت : « ان تحت السماء امورا لا تدركها فلسفتنا . . . »

ولقد وعى أبو نوس ماوصل اليه من الفلسفة بدليل ما جاء فى شعره من ألفاظها حيث يقول :

ولكننى لمـــا بدا منك ما بدا   وقست امورى عند ذاك بمقياس

وحيث يقول :

ألم تر جوهر الدنيا المصفي   ومخرجه من البحر الاجاج

وفى قوله يصف الخمر :

جاءت كروح لم يقم فى جوهر   لطفا به يحصره نور

وفى قوله راجزاً :

فهى إذا شجت على العلات   ببارد المـــاء من الفرات

وفى قوله أيضا :

أنت صورة الاشياء بينى وبينه   فجهلى كلا جهل وعلمى كلا علم

وجلى أن الفاظ المقياس والجوهر والعلات والصورة ـ كل هذا من الفاظ الفلسفة اليونانية التى شاعت فى عصره ، فلا غرابة ان يستعملها ما دام قد استوعبها . اما الغرابة ففى استخدام بعض معانى هذه الفلسفة كقوله متغزلا :

لو كانت الاشباح تعرفه أجللته اجـلال باريها
لو تستطيع الارض لانقبضت حتى يكون جميعه فيهـا

– وقوله يصف كلب صيد :

أغضف لا ييأس من خلاطه يصيد بعد البعد وانبساطه

فانقباض الارض حتى يملأها المحبوب جميعا وبعد البعد وانبساط البعد يصيده الكلب من المعانى الدقيقة التى لم يسبق اليها أبو نواس. وقد بحثت اليونان فى « نفس النفس » وهى ما كانوا ينعتون بها النفس المفكرة وتلك المعانى موحاة من هذه. وقد يطول الكلام على هذا وتكفى الاشارة اليه

وإذا قال أبو نواس يهجو مغنيا :

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كانك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

– قال ابن قتيبة : « هذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشىء اذا أفرط فى البرد عاد حارا مؤذيا »

وقد يتضجر أبو نواس من هؤلاء الذين يجادلونه فى الاديان والمذاهب فيقول لاحدهم على التعميم :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى فى جميع الذى تذكر إلا الموت والقبر

ويقول فى وصف الخمر على التقرير :

تقسمتها ظنون الفكر إذ خفيت كما تقسمت الاديان آراء

وهو القائل :

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
انما السالم من ألجم فاه بلجام

وفى معرض الغزل :

أتغدو للحديث الى فقيه وتنظر فى الحلال وفى الحرام
فهل حدثت عن قتلى بشىء من الفقهاء يا بدر التمام

فلاعجب بعد هذا أن يقول ابن خلكان فى اسناد الى اسماعيل بن نوبخت : « ان أبا نواس كان أعلم الناس . . . » وما من شك ان مثل ذهنه المتوقد لا ينى من الاطلاع والدراسة وانما الفضول العقلى من لوازم النبوغ وهو هو الذى قال :

قلبت آفاق الكلام فما أبصرتنى أغفلت من معنى

رأى ابى نواس فى الدنيا

ولكن العلم شيء والخلق شيء آخر . ومن يطيل النظر فى شعر أبى نواس يجد نفسه أمام رجل ضيق الصدر قليل الصبر . لا يحسن التفكير فى أمر ينطوى على الجد . ولا يهمه فى يومه ما يأتى به الغد . لانه لا يرى لنفسه خطة يسلكها ولا نهجا ينتهجه . فبأية عين ينظر الى الدنيا سوى أنها دار جميلة السكنى لكن سرعان ما تنتقض بسا كنها ؟ وانما الناس فيها جيران ثقلاء فهو لا يأبه لهم ولا يقيم لهم وزنا . فاذا ما أفاد من دنياه جهده فعفاء لها بعد ذلك . وقد صور نفسه على حقيقتها حيث قال :

وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

وهو صادق حيث يقول :

فانى قد شبعت من المعاصى ومن ادمانها وشبعن منى

وحيث يقول :

تلك لذاتى وكنت فتى لم أقل من لذة حسبى

إذن هو يعتنق فلسفة اللذة فى أسهل مبادئها فيجعل لذته غاية كل شيء . فاذاً تحصيل العلم لذة واقتناء الكلاب لذة . والصيد لذة . وشرب الخمر لذة . والتصرف فى الزندقة لذة . ومغازلة الحسان والغلمان وما هناك من تواصل وتقاطع وعبث ومجون وتهتك واستهتار - كل هذا لذة ما وراءه لذة

أجل ليست هذه اللذه منظورا من ورائها احراز السعادة على طريقة ابيقوروس يفصلها الفيلسوف اليونانى الى جسمية وروحية ويجعلها غاية الحياة ، وما دامت غاية فى نظره فهى فضيلة ، وكل فضيلة خير ، فكل لذة لا تفضى الى خير فهى شر بعواقبها يجب استبعادها حتى تتم المنفعة . نعم لم تكن لذة أبى نواس منسوخة عن أبيقوروس، بل هى لذة الفارسى الشعوبى الماجن يتزندق متظرفا حتى يرده اسلامه الى ايمانه

هذا هو أبو نواس فى كل أدوار حياته . وشواهد ديوانه لا تحصى للدلالة عليه ، سواء فى غزله أو هجوه أو عتابه أو فى هذه الخمريات الرائعة التى تبقى ما بقيت الخمر واللغة العربية

هل تزندق ابو نواس

وقد كان ابو نواس يتظرف حتى يقال عنه انه زنديق وانه كافر . وهو نفسه يقول هذا عن نفسه إذ يهجو ابراهيم النظام :

قولا لابراهيم قولا هذرا غلبتنى زندقة وكفرا

ولم يكن هذا إلا استرخاء فى العقيدة وتهاونا فى امور الدين لأن الزندقة التى حاربها الخلفاء وبطشوا بالذين دانوا بها كانت عقيدة أصحاب مانى ، وهذه لايجسر ابونواس ان ينسبها لنفسه ، بل هو يتبرأ منها حين يتهم بها علنا ابان بن عبد الحميد اللاحقى :

فقلت سبحان ربى فقال سبحان مانى
فقلت عيسى رسول فقال من شيطان

أما هو فمسلم سنى ينعى على الشيعيين حظر العفو عند تعمد الذنب :

لا تحظر العفو ان كنت امرا حرجا فان حظركه فى الدين ازراء

ويقول فى مكان آخر :

وثقت بعفو الله عن كل مسلم فلست عن الصهباء ما عشت مقصرا

وكيف يكون زنديقاً وكيف يكون كافراً من يقول :

شمر فما فى الدين اغلوطة ورح لما أنت له رائح

أجل إن فلسفة اللذة التى اعتنقها كانت ملقاة الحبل على الغارب . لا يكبحها كابح ولا يخضد حدتها خاضد لذلك آلت به حتما إلى الألم وأغلب الظن أنه لم يترك الخمر حتى تركته بوازع المرض . ومهما يكن من الأمر فان توبته كانت مخلصة صحيحة بدليل خوفه :

رحم الله مسلما ذكر الله فازدجر
غفر الله ذنب من خاف فاستشعر الحذر

وقوله وفيه زجر وموعظة :

ما ارتد طرف امرىء لذته الا وشىء يموت من جسده

وقد رقت شكواه جداً برقة حاله وشدة ندمه حيث قال :

هد جسمى السقام سفلا وعلواً وأرانى أموت عضوا فعضوا

وحيث قال : فما عاش منى بالذى مات ناهض فبعضى لبعضى دون قبر البلى قبر

ولعل مدة توبته كانت أطول مما توهموا لما أوحت به من تأنيب النفس وحرارة الضراعة . ولا غرو فان أبا نواس كان صادق الشعور يودع شعره مكنونات فؤاده وخوالج نفسه . وقد جاءت توبته حارة بمقدار ما كانت معصيته حارة ، وهذا أمر طبيعى يعرفه علماء النفس الروحيون. وفى مقطوعاته الشعرية فى الزهد مايفوق كل مقطوعات أبى العتاهية معاصره فى الزهد والورع . وإنما كان أبو العتاهية ينظم مواعظه للرشد والنصيحة وكثير منها يشبه نظم النحاة أراجيزهم فهى بعيدة عن الحياة وطيبها وكل شعر لا تلهبه الحياة فهو ألفاظ ولم ينظم ابو نواس إلا شعرا خالصاً

خليل شيبوب

الخليفة الامين
يأمر بقتل شاعره

لما وقع الخلف بين الأمين والمأمون . كان المأمون يخطب منددا بمساوىء أخيه . وقد نصب رجلا يحفظ شعر أبي نواس ، فيقوم بين يديه ، فيقول عن الامين :

« . . ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزىء متهكم يقول كذا وكذا . وينشد قوله :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

وينشد ايضاً قوله :

يا احمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعص جبار السموات

وغير ذلك من مجون . ويذكر اهل العراق ، فيقول : « اهل فسق وفجور ، وخمور وماخور » ويلعنهم من يحضر المجلس من اهل خراسان ، فكتب بذلك الى محمد الامين عيونه ، فجزع له ، وأمر بقتل أبي نواس ، فلما أحضره للقتل ، أحضر الفقهاء وحساده من الشعراء ، ثم قيل له :

ـــ ألست القائل : « يا احمد المرتجى في كل نائبة » الخ

قال :

ـــ بلى يا امير المؤمنين

قال الامين : « كافر » . . ثم قال للفقهاء : ما تقولون يامعشر الفقهاء والشعراء ؟ »

قالوا :

ـــ كفر يا امير المؤمنين

فقال ابو نواس : « يا امير المؤمنين . ان كانوا قالوا هذا بعقولهم فما انقصها ، وان كانوا قالوه بآرائهم . فما اجهلهم ! أيكون كافراً من يقر بأن للسموات جباراً ؟ »

قال الامين : « لا والله . ولقد صدقت . قم » . وقام فاطلقه

وقيل انه قال للامير :

ـــ يا امير المؤمنين . اجمع كل زنديق في الارض ، فان زعموا ان في السماء إلها واحدا فاضرب عنقي . ولكني صحبت قوماً جهالا ، لا يعرفون المزاح والجد . وانا يا امير المؤمنين الذي اقول :

قد كنت خفتك ثم امنني من ان اخافك خوفك الله

الرشيد وأبو نواس

هل كان النواسي نديماً للرشيد

بقلم الأستاذ عبد الحميد العبادي

شخصيتان معروفتان مألوفتان عند الخاص والعام، وممدودتان من وجوه كثيرة أعجب شخصيات العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى: الاولى شخصية شاعر عربى أعجمى الاصل تناهت فيه فلسفة الاعاجم الاباحية القائمة على الاستهزاء بالمواصفات والعقائد، وعلى الاستمتاع باللذة، مشروعها وغير مشروعها، مقبولها ومرذولها، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة البائرة المبيرة فى شعر سهل بلمغ لم يسبق اليه ولم يلحق فيه. فغدا بحق امام شعراء مذهب اللذة فى العربية وحامل لوائهم على الاطلاق. أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربى تناهت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد، والجبروت، والعصبية والعقيدة الجامدة، مع ما يمتاز به العربى المترف عادة من رقي الذوق، ودقة الاحساس، ولطف المزاج.

واذا كانت فلسفة أبى نواس قد عادت عليه بتخرق الخلق، وشذوذ الشهوة، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأى وجمود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه سلطانه خيراً كان أو شراً. من أجل ذلك نستجيز أن نستعير تعبيراً فرنسياً شاع فى أوربا فى أواخر القرن الماضى fin-des-lècle وأعطاه الكاتب الالمانى الاشهر ماكس نوردو طابعاً علمياً خاصا (١) فنسمى أبا نواس «شاعر آخر الزمان» والرشيد «ملك آخر الزمان» كذلك. ولامر ماشاءت الاقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا فى العقد الاخير من القرن الثانى الهجرى

جمعت بين هاتين الشخصيتين العجيبتين جوامع الزمان والمكان والفن، ولكن باعدت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما. فترددت الصلة بينهما بين السلب والايجاب والوجود والعدم، وهذا هو المؤتلف مع فلسفة الرجلين والمتفق مع الثابت المستيقن من أخبارهما. بيد أن أخباراً محرفة منحولة تؤكد توثق الصلة بينهما الى المدى الذى يكون عادة بين الاوداء والخلطاء غير مبالية ما بين الرجلين من تفاوت الفلسفة واختلاف المزاج. كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أبدعها خيال القصاص فى شتى العصور الاسلامية قد ذهبت فى تصوير الصلة بين أبى نواس والرشيد كل مذهب

(١) فى كتابه «الانحطاط» Degeneration: الباب الاول ومؤداه التحلل من قيود العرف والاخلاق

مطرحة كل اعتبار الا اعتبار الرغبة فى تفكهة القارىء وامتاعه . . والآن فلنعرض لكل ذلك بشيء من التفصيل :

ولد أبو نواس بالاهواز حوالى عام ١٤٠ ونشأ وتعلم بالبصرة . ثم ارتحل الى البادية فى طلب اللغة وفصاحة اللسان . ثم انتقل الى الكوفة للاخذ عن علمائها . فلما اكتملت مواهبه ونضج شعره ارتحل إلى بغداد بلد العلم والادب والسياسة العليا فى ذلك الزمان كما كانت بلد الحياة الماجنة الخليعة التى يؤثرها من كان مثل ابى نواس فاتخذها الشاعر مهاجرا ولزمها حتى آخر حياته اذا استثنينا رحلته القصيرة الى مصر . والظاهر ان هجرته الى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩ (١) على اكثر تقدير ، أى فى الوقت الذى كان البرامكة فيه قابضين على زمام الامر فى الدولة الاسلامية فكان طبعيا أن يتوجه اليهم ابو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أربع البلى ان الخشوع لباد عليك ، وانى لم اخنك ودادى

قالوا ولما سمعها الفضل بن يحيى تطير منها تطيراً شديداً ، ولم يمض أسبوع على سماعه لها حتى نكب ونكب معه قومه . ونحن نعرف ان نكبة البرامكة كانت عام ١٨٧ واذاً يمكن القول ان أبا نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يخص البرامكة من بين رجال الدولة بشعره ، وانه لم يتوجه الى الرشيد بمدحه فى تلك السنوات الثمان . والحق اننا لانجد فى ديوانه شعراً قاله فى الرشيد ويمكن رده إلى تلك الفترة ولا عبرة بتلك الابيات التى قالها ابو نواس فى عام ١٧٩ يحث الرشيد على استحجاب الفضل بن الربيع (٢) :

قولا لهارون امام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

فهى فى الواقع مدح فى الفضل بن الربيع وقد أوردها جامع ديوان ابى نواس على أنها كذلك

فلما دالت دولة البرامكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالامر دار ابو نواس مع الفلك الدوار وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة نفسه وكان ذلك بدء اتصاله الادبى بالرشيد . ومن أوائل مامدحه به قوله من قصيدة :

انى حلفت عليك جهد ألية قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقى

---

(١) وذلك مستفاد من قوله يخاطب جعفر بن الربيع :

ولا تجحدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

(٢) ذكر الطبري ان الرشيد عزل فى عام ١٧٩ محمد بن خالد بن برمك عن الحجبة وولاها الفضل بن الربيع

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق
وصناعة الشعراء ان انفقتها ... نفقت وان اكسدتها لم تنفق

وقوله من قصيدة أخرى :

تبارك من ساس الامور بعلمه ... وفضل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الامناء
امام يخاف الله حتى كأنما ... يؤمل رؤياه صباح مساء

وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون ألفنا ائتلاف مودة ... ماتت لها الاحقاد والاضغان
فى كل عام غزوة ورفادة ... تنبت بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى ... باليعملات شعارها الوخدان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس انما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بمظهر البأس والجبروت ، وعنـد ما غدا مخوفا مرهوباً لا تؤمن بوائقه . وعند ما جد فى جهل الروم وأذل طاغيتهم ، وعند ما أصبحت بضاعة الشعراء رهن مشيئته ، إن شاء نفقت وان شاء كسدت . والرشيد انما ظهر بكل ذلك بعقب ايقاعه بالبرامكة . بل ان المصادر التاريخية نفسها تعيننا على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة . فالراجح أن القصيدة الاولى مدح بها أبو نواس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على نقفور البيزنطى انتصاره المشهور (١) أما القصيدة الثانية فثابت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ولقبه بالمؤتمن (٢) وأما القصيدة الثالثة فقالها عام ١٩٠ عند ما اتخذ الرشيد قلنسوة مكتوباً عليها « غاز حاج » (٣)

على أن هذه المدائح وغيرها من شعر أبى نواس فى الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل الشعر الرسمى الذى يقال فى الظروف والمناسبات الخاصة ، وليس فيها ولا فى عامة شعر أبى نواس مايفيد أن أبا نواس تجاوز فى علاقته بالرشيد هذه الحالة الى أن يكون من شعراء البلاط فضلا عن أن يكون من جلساء الرشيد وندمائه . بل ليس فى شعر أبى نواس ولا فى الثبت من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد الرشيد شعره إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض معاصريه أمثال أبى العتاهية ومروان ابن أبى حفصة مثلا (٤) لقد كان ثم أمور تحول بين أبى نواس وبين هذه الغاية . لقد كان أبونواس قبيح السيرة ، ماجنا ، سكيراً متهماً فى نفسه مقيما بحانات الكرخ ومواخيره يشرب الخمر ويعبث بالغلمان ، وكان يصرح بكل ذلك فى شعره وخاصة خمرياته حتى شاع أمره فى بغداد . ثم إنه قد خاض فى أمر العصبية العربية وتقلب فيها تقلبا منكراً ، فادعى أول الامر نسب النزارية وهجا اليمن

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ ـ ٩٣ (٢) الطبرى ج ١٠ ص ٩٦ (٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩ (٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ ـ ٩٣

ثم عاد فادعى نسب اليمن وهجا النزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم صار شعوبيا وبرىء من العرب قاطبة وهجاهم وادعى الاعجمية (١) . وسبب ثالث قعد به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته وزندقته ومجاهرته فى شعره بآراء الثنوية فهذه الامور كانها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبى نواس ويأذن له فى غشيان حضرته وانشاده ، وهو بعد الحريص على مظهره الاسلامي ، المترمت فى أمر العرض والشرف ، الفخور بنسبه العربى النزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة المسلمين وحارس الدين والآداب ، لم يتردد فى الضرب على يد أبى نواس ، وفى أن يمسه من حين لآخر ببعض العقاب ، فقد رووا أنه حبسه فى شرب الخمر (٢) وأنه حبسه طويلا بسبب قصيدته التى هجا بها النزارية ، وأنه حبسه كذلك من أجل جهره بالزندقة وعقائد الثنوية ، وكان حساده وأعداؤه من جلساء الرشيد يقعون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . رووا (٣) ان الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضره فى المطبوعين من شعراء المحدثين ، الى ان اتصل الذكر بالحسن بن هانىء فغمز عليه سليمان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! كافر بالله . لا يرعوى عن منكر ولا يأنف من فاحشة ، وقد نمى الى أمير المؤمنين خبره . فقال : يا أبا عمر ! هل تروي عنه من ذلك شيئا ؟ قال : نعم ! قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً فى الدين ما الامر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى يذكر إلا الموت والقبر

ثم أنشده قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السر وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجع وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبا . وقال : على بابن الفاعلة . يا فضل ! لا يفوتنك الزنديق ! ونمى الى أبى نواس الخبر فساخ فى الارض ، فلم يقدر عليه احد . فقال رجل من جلساء الرشيد : إن اذن أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع مما سمع . قال : هات ! قال : قوله فى غلام نصرانى :

تمر فأستحييك ان أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتز فى ثوبيك كل عشية قضيب من الريحان شب منعما

(١) أخبار أبى نواس الورقة ٨٥ (من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية) (٢) أخبار أبى نواس ص ١٠٩ (من الجزء الاول المطبوع) (٣) أخبار أبي نواس الورقة ١٠١ (من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية)

يحسبك أن الجسم قد شفه الضنى — وان جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحد — غزال مسيحي يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد مصيره — عبدت مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! واشنع من ذلك ، قال : هات ! فأنشده قوله فى غلام نصرانى :

وملحة بالعذل ذات نصيحة — ترجو إنابة ذى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى — غير الرشاد ومذهبى وخلائقى
فأجبتها كفى ملامك اننى — مختار دين أقسة وجثالق
والله لولا اننى متخوف — ان ابتلى ......

وقطع الانشاد ، فقال له الرشيد : بماذا ، ويلك ! فاستعفاه ، فقال : ويلك ! بماذا . فقال :

...... بامام جور فاسق

قال فضج المجلس بأهله . وأنكر الرشيد نفسه . ثم قال : امض . فقال :

لتبعته فى دينه ودخلته — ببصيرة منى دخول الوامق
انى لاعلم ان ربى لم يكن — ليخصهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل بن يزيد بن المنصور : ان لم يبت هذا الكلب فى المطبق لتنكرن قولا وفعلا . فوجه الفضل (فى طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع المطبق ثم أغاثه الفضل بن الربيع الى أن اطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى الـ — فضل من حلق الكبول
وأقالنى عثرة العثا — ر وقد أيست من المقيل

والظاهر أن ابا نواس قال فى ورطته هذه يستعطف الرشيد قصيدته التى يقول فيها :

بعفوك لا بجودك عذت لا بل — بفضلك يا أمير المؤمنينا
فلا يتعذرن على عفو — وسعت به جميع العالمينا

على ان الرشيد لم يكن بالرجل الذى تخفى عليه مكانة أبى نواس فى الادب والشعر خاصة . لقد كان الرشيد نفسه ذا بصر بالشعر عليما بمراتب الشعراء شديد العطف عليهم والرعاية لهم . وكان فى قرارة نفسه عظيم الاعجاب بفن ابى نواس مؤمنا بأنه امام شعراء زمانه غير مدافع . قال اسمعيل بن صبيح (١) قال لى الرشيد : يا اسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة فطنة شكلة حلوة متكلمة ظريفة عالمة تسقينى فان الشرب يطيب من يد مثلها . قال : فقلت يا سيدى ! على الجهد . فقال :

(١) اخبار ابي نواس . الورقة ٦٩ (من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية)

اجعل قول هذا العيار امامك — يريد أبا نواس — وامتثل فيها ما حد فى مثلها . فقلت ياسيدى ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناهيك ساقية ... فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى معاينة ... بالكشح محترف بالكشح مكتسب
حتى اذا ما غلى ماء الشباب بها ... وأفعمت فى تمام الجسم والعصب
وجمشت بجنى اللحظ فانجمشت ... وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير انسان لها شبها ... فيمن برا الله من عجم ومن عرب
تلك التى لو خلت من عين قيمها ... لم أقض منها ولا من حبها أربى

من أجل هذا التقدير الفنى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبى نواس المبلغ الذى يقتصيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجونه ، واستهتاره ، ومجاهرته بالمعاصى فى شعره ، بمجرد الحبس . ومع ذلك كان اذا كتب اليه أبو نواس من السجن يستعطفه . او شفع عنده شفيعاً ذا خطر ، أقال عثرته وقبل شفاعته فيه وأمر بتخلية سبيله . بل لقد بلغ الامر بالرشيد ان انزعج عندما أرجف أهل بغداد بأن أبا نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية (١) : غاب أبو نواس عنا وعن اخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خبراً وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، وبلغ ذلك الرشيد فقال : والله ان صح انه قتل لاقتلن قاتله ولو كان محمدا (يريد ابنه الامين) انظروا كل من هجاه من الناس فا كتبوا اسمه وارفعوه إلى ! فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول اذا نحن به قد وافى . فقلنا له : يا أبا على ! قد غبت هذه الغيبة عنا فغممتنا وظننا بك الظنون . قال : كنت فى بيتى . قلنا : ألم تسمع بغمنا لك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من اخوانه الا عذله ، وقالوا : ان فى هذا تعريضا لنفسك للآفات ، فأنشأ يقول :

انى لفى شغل عن العالمين ... بالروح والريحان والياسمين

الى آخر القصيدة

☆☆☆

وجملة القول ان أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه فى تلك الشخصية الساطعة المتلألئة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم ألا سبيل له الى الاتصال بتلك الشخصية فوق هذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستعطفه « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر فن أبى نواس ويعجب به أشد الاعجاب ، ولكنه للاسباب التى سبق ذكرها كان لا يستطيع او لا يريد

(١) أخبار ابى نواس : الورقة ٩٨ (من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية)

الذهاب إلى أبعد من حد التقدير والاعجاب ، فكان يسمع شعره وينقده (١) ويعجب به ، ولكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين ابى نواس والرشيد وذلك مقدار مداها

☆ ☆ ☆

على أن هناك طائفة من الاخبار تزعم أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد وانه كان يدخل عليه ويجالسه وينادمه وانه كان ملازما لقصره وان له وقائع ونوادر مع حرم الرشيد وجواريه. وعندى ان بعض هذه الاخبار يصح اذا وضعنا مكان « الرشيد » لفظ « الامين » . فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً لقصر الامين ينادمه ويجالسه ويشاربه ، إلى حد أن استغل المأمون تلك الصلة فى التشنيع على الامين بخراسان (٢) عندما استحكمت الثغرة بين الاخوين. وقد دعا ذلك الامين آخر الامر إلى التشديد على أبى نواس فى ترك الخمر والى حبسه عندما كان يعصى أمره . وقد أشار أبو نواس الى ذلك فى شعره . وقد يكون بعض هذه الاخبار صحيحاً كذلك اذا وضعنا مكان اسم أبى نواس اسم « ابن أبى مريم المدنى » (٣) وكان رجلا مضحاكا فكها منقطعاً إلى الرشيد فى أواخر حياته يسليه ويفرج همومه بنكاته وطريف أحاديثه

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والنوادر تدور حول العلاقة بين أبى نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال فى العصور الاسلامية المختلفة . هذه الحكايات لا نجد لها أثراً مافى كتب الادب والتاريخ المعتمدة كالاغانى والعقد الفريد ، ولكنها حفلت بها كتب القصص وخاصة كتابى «الف ليلة وليلة» و « اعلام الناس » وهي تصور ابا نواس فى صورة رجل مضحاك يفكه الخليفة باشعاره الطلية المرتجلة ويضحكه بنوادره المستملحة . ولو أجاد واضعو هذه الحكايات السبك لنسبوها الى ابن ابى مريم المدنى المذكور ولكنهم نسبوها خطأً الى أبى نواس . قال ابن منظور صاحب «لسان العرب» ومؤلف كتاب « أخبار ابى نواس » (٤) : وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبى نواس ان هذه الحكايات عن ابى نواس والرشيد موضوعات ، وان أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وانما دخل على محمد الامين »

واذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر فى نفيه عن أبى نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عباراته فيما دون ذلك صادقة كل الصدق

عبد الحميد العبادي

(١) ديوان ابي نواس : هامش ص ٧٣ (طبع المطبعة العمومية) (٢) اخبار ابى نواس : الورقة ٧٢ (من النسخة الخطية) (٣) الطبري جـ ١٠ ص ١١٤
(٤) السفر الاول المطبوع ص ٢١٧

خمريات أبي نواس

بقلم الأستاذ حسين شفيق المصري

لو لم يكن أبو نواس معروف الاصل والفصل والزمن ، ما كان فرق بينه وبين مجنون ليلى وجحا وغيرهما من أشخاص القصص التي يضعها الخياليون ، لأن المذكور من حياته والمشهور من شعره اكثره مختلق منحول ، وسيرته تصوره بصورة لم تكن له ولم تخطر عنه ببال أهل أهل زمانه ، فهو فى أحاديث المتحدثين عنه رجل ماجن مخلوق للتهريج بلا حياء ولا دين ولا كرامة ، وهذا مفترى عليه ولا شك . ولو كان على تلك المهانة ما اعجب به الرشيد ولا قربه الأمين ولا أمراء القرن الهجرى الثانى والاسلام فى عنفوانه والاحكام الدينية قائمة بالرغم مما خالط ذلك الوقت من الهنات التى جاءت بها الفرس والروم ، فوق ما كان من آثار أولئك الأعاجم الذين خالطوا أهل العراق فى الجاهلية وما بعدها الى عهد هذا الشاعر المعلوم المجهول !

والغريب أن الذى أصاب الحسن بن هانىء ـ أبا نواس ـ من سوء السمعة قد تطاير منه رشاش أصاب أمير المؤمنين الرشيد ، وانصب منه الشيء الكثير على الأمين ، فعزى اليهما اللهو والقصف والخلاعة ، على حين أن الرشيد كان مقيما للصلاة مؤدياً للحج وسائر الفرائض ، ولم يرم الأمين بما رمى به الا اندفاعاً مع السياسة التى أرادها انصار أخيه المأمون ، مضافة الى خيالات الرواة وأصحاب القصص التى لا تروج الا بغرائب الاكاذيب

والحق أن أبا نواس كان يشرب الخمر ، وكان يمجن ولكن بالمقدار الذى لا يجعله مثلة من المثلات . ولم يكن له بد من القصف والمجون فى حدود العقل الذى لا يحجبه عن الخلفاء والأمراء الغيورين على الدين ، فقد وجد فيما بين عامى ١٤١ و ١٩٩ للهجرة ، وولد بالأهواز ، وعاش فى بغداد ، وهى مدينة كان فيها العدد العديد من اهل الذمة الذين لم تحرم عليهم الخمر ، وكان هو وأمثاله من الشعراء والمترفين يختلفون اليهم ويشاركونهم فى عاداتهم وأخلاقهم ، ويعرفون منهم الخمارين . والشباب والجدة يدفعان الى الشهوات ولو كان وراءها العقاب الأليم

واختلاط دم أبى نواس بالدم الفارسى أمه جعله سريعا الى الحضارة نفوراً من البداوة ، وهذا ظاهر فى شعره عن الخمر وغير الخمر ، ولعل هذا كان سبباً فى تجاوزه الحد فى المجون أحياناً ، فحبسه الرشيد ثم الأمين ، فكان يتوب توبة الحدأة من خطف أفراخ الدجاج

[illegible]

معاصريه من الشعراء المجيدين وسخفاء الشعراء ، ومحال أن يهتدى الى شعره بين ذلك ما لم يكن الباحث عارفا بالشعر والخمر معا عارفا بأساليب الشعراء فى مختلف الامصار ومختلف العصور

ويزيد الحيرة ظلاما أن القصيدة الواحدة من خمريات أبى نواس قد يكون له منها بيت أو بيتان وباقيها لشاعر أو عدة شعراء جمع بعض الرواة أقوالهم وجعلها مع بيتيه متلاحقة فى غير ترتيب قصيدة ، يزعم أنها نواسية ويتاجر بذلك ولا يدرى أنه يجنى على الادب أفظع الجنايات

ثم إن كل ما روى عنه من الشعر على حروف التاء المثناة والثاء المثلثة والجيم والخاء مفترى عليه وليس له منه شيء لسخافته وركاكته التى لا يمكن أن تكون لشاعر من أهل عصره . ولا قيمة لمن يزعم أنه كان يسخف إذا قال الشعر وهو سكران ، لأن هذا الزعم من أقوال أناس غير شعراء وليس فيهم من ذاق الخمر ، وأصحاب الشعر والخمر يعلمون علم اليقين أن نشوة الشارب تفصح لسانه وتوسع دائرة خياله وقد كان الاخطل اذا اجبل استعان بالخمر على الشعر ، وهذا شأن كل شاعر مجيد . . ومما خلطه الرواة قوله :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها ملأه ذهبا
قصرت بالراح فاحذر أن تسمعها فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا

فان هذين البيتين المرقصين من قصيدة كلها ركاكة وضعف وهذيان شديد فى لغة بعيدة من لغة القرن الثانى للهجرة كبعد التراب من السحاب . . وكذلك فعلوا بقوله :

كأن منظرها والماء يقرعها ديباج غانية أو رقم وشاء
كأن قرقرة الابريق بينهمو رجع المزامير أو ترجيع فأفاء

فان هذين البيتين من قصيدة ضاعت فلفقوا له معهما قصيدة انحدروا بها فى الرداءة الى زعمهم أنه قال فيها :

ونحن بين بساتين فتنفحنا ريح البنفسج أو نشر الخزاماء !

فأبو نواس براء مما خلطوا به شعره ، ولولا خوف الاطالة لاوردت من بدائعه ما يجعل كل ما قيل فى الخمر من بعده ومن قبله هباء لا يعبأ به أحد ، فقد ابتدع معانى لا تخطر على قلب شاعر وجاء من الوصف بما يسخر من تصاوير المرآة الصافية ، وماذا عسى أن يقول مخلوق يصف جميلا فى يديه كاسان فيهما خمر بعد قوله :

فشبهت كأسيه بكفيه إذ بدا سراجين فى محراب قس إذا صلى

والذى بلغ بأبى نواس الى هذه المنزلة من الاجادة فى الخمريات ليس كونه شاعراً كبيراً كما يتوهم الناس ، بل كونه كان يتكلم عالما لا متخيلا . لانه انما كان يتكلم عما يرى بعينه ويذوق بلسانه ويحسه يجرى فى دمه . ولخياله مع هذا العلم سماء فوق السموات

وابو نواس فى شعره يسجل عادات زمنه واخلاق معاصريه . فانه يخبرنا ان تبادل الشاربين

التحية عند شرب كل كاس من عادة الاولين . فقد كانوا يقرع بعضهم كؤوس بعض ويقولون : « السلام عليكم » او « سعد مساؤكم » مثلا كما يفعل السكيرون الى الآن . قال :

ادار علينا بالتحية كاسه وسربلها لونامن الراح احمرا

وقد وصف كثيرا من مجالس القصف واللهو فى اسلوب باهر، وروى لنا كثيرا من حوادثه باسلوب يشهد للغة العربية بانها سيدة اللغات التى تسع القصص فى شعرها العالى الآخذ بالالباب، بالاسهاب تارة وبالايجاز أخرى، فيحار السامع فى أمر تفضيل الاطالة أو الاقصار ولا يدرى بأيهما يتعلق دون الآخر وهما كالقرنفل والورد من الزهر

وكما رزق أبو نواس رواة سوء نسبوا اليه ما ليس له من السخافات ، كذلك رزق نقادا جهلاء عابوا أحسن ما قال فزعموا أنه ضعف فى قوله :

أقمنا بهـــا يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس

فقالوا إنه أضاع الوقت سدى وكان يستطيع ان يقول : « اقمنا خمسة أيام » وهو انتقاد فى ظاهره وجيه ، ولا وجاهة له عند من يفهم الشعر ، فيراه قال إنه واخوانه اقاموا فى الحانة يوما ليرحلوا بعده فاستحسنوها فاستقر رأيهم على الاقامة يومين آخرين فلما قضوهما قالوا نقيم يوماً آخر فلما قضوا الرابع لم يهن عليهم مفارقتها فاقاموا اليوم الخامس . وهو بهذا البيت قد حكى حكاية وقص قصة وهم لا يشعرون . . ومثله قوله :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا وثمان عشرة واثنتين وأربعا

قال ناقد جاهل : لم لم يقل شربت اربعين عوضا عن هـــذا الكلام الطويل ، مع انه اقصر كلام لاطول معنى ، فقد وصف ليلته بطولها فى بيت واحد من الشعر فقال انه شرب ثمانية اقداح فى حانة ، وانتقل الى مكان آخر فشرب ثمانية أقداح ، ثم خرج يسعى الى مجلس انس شرب فيه ثمانى عشرة كأسا ، فخرج بعد ذلك الى حانة شرب فيها كاسين ثم انتقل الى حانة شرب فيها اربعا ، وهو غاية فى الايجاز مع التفصيل الشافى لمن يفهم الشعر

فنحن نخرج من هذا الى أن أبا نواس قد ظلمه الرواة كما ظلمه القصاصون ، وانه كان يشرب الخمر ويمجن، ولكنه كان من أصحاب الأقدار ولم يكن مدمنا يسخر منه الناس أو يتخذونه ضحكة ولو كانوا ملوكا وامراء . لأن الرجل كان فى عصر نهضة أدب وعلم وحضارة وزينة ، فكان حريا بان يندفع مع التيار بحيث لا يغرق . وأكبر دليل على ان ما عزى اليه من الشعر الضعيف لشعراء آخرين أنك حين تقرأ مدائحه لا تراه الا رصينا مكينا عربيا مبينا ، فى طليعة الطبقة الاولى من فحول شعراء الجد الذين لا يهزلون، ولا والله ما قالوا مثل قوله :

واذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

حسين شفيق المصري

المرأة في شعر أبي نواس

بقلم الدكتور ابراهيم ناجي

« .. ورأيي ان ابا نواس لا يقل شاعرية عن اى شاعر غربي من الفحول . ولو واتته الظروف والبيئة ، وألهمته المرأة ، لقرأنا له ليالي كوسيه ، ومأتميات كلامارتين .. »

فى النسخة التى بين يدى عن أبى نواس يقسم جامع الكتاب غزل أبى نواس الى قسمين غزل المؤنث ، وغزل المذكر ، والثانى أقوى من الاول وكان حقه أن يسبقه فى الترتيب ، وان يعقب باب الخمريات وأن يكونا معاً فى مقدمة الديوان لانهما حياة أبى نواس ولب لبابها . وانك لتراه فى الخمريات يتكلم عن الغلمان ، وعند ما يتكلم عن الغلمان يتكلم عن الكاس . فما أوثق الصلة عنده بين الكاس والغلام !

على أن هناك صنفا آخر من الغزل عند أبى نواس ، ذلك هو الغزل السخيف المتكلف الذى يقع فى أول قصائد المدح ، وهذا لا يدخل فى حسابنا ولن نتكلم عنه لانه مزيف ولا معنى له . ومن المحزن حقا أن ترى آثار «التجديد» فى شعر أبى نواس واضحة ملموسة، واضحة فى تعابيره، وواضحة فى طريقته . على ان التقليد جرفه هو أيضا فاضطر أن يجارى القدماء فى عهده فيخاطب الديار ويتكلم عن النياق والابل ، ويبدأ المدح بالغزل ، وهو ذلك الرجل « المودرن » بكل معنى الكلم الذى يقول فى محبوبته : « مطمومة الشعر غلامية . . . »

والذى يقول عن الخمر ذلك البيت الذى لا يقوله الا باريسى بودليرى

صفراء تضحك عند المزج من شغب ... كأن أعينها أنصاف أجراس

وقد كنا جماعة نتحدث عن معنى ذلك البيت العجيب ، فاتفقنا على ان المرء يجب ان يدمن الشراب كابى نواس حتى يرى ويفهم هاته « الانصاف أجراس »

الآن نتكلم عن غزل المؤنث عند أبى نواس :

أول ما نلاحظه عن حب المؤنث عند أبى نواس أن حبه سطحى وناقص . ذلك لانه لم يخلق لحب النساء ، فشروط الحب الكامل عند علماء النفس ثلاثة : الاول الاعجاب الكامل ، والثانى ان يكون بين ذكر وأنثى ، والثالث أن يكون هناك « الاسمنت » الذى يربط الاول بالثانى ، ذلك هو

الاعتياد ، والتزاور والاختلاط ، ويسمى الفرنسيون ذلك L'habitude أما ان حبه المؤنث سطحى ، وواضح من اكثر أبياته فى الغزل . فهو لا يعنى مرة بتحليل عاطفة . ولا تعمق فى شرح احساس وان كان شعره لا يخلو من ومضات رائعة ، ربما كان سببها اللوعة والكبت ، وانى أذكر على سبيل المثل أبياته الشهيرة :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهيــة والمحب ينتحب
كلما انقضى سبب منك عاد لى سبب
تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

وهى أبيات ظريفة ، وموسيقاها تامة

وكان أبو نواس يحب أكثر من امرأة واحدة ، فهناك جنان وعنان ، وسمجة (ما اعجب الأسم !) ودنانير وغيرهن ، وأكثر شعره موجه الى جنان ، وقد كان على مايرى القارىء لشعره لا يراها الا نادراً ، وكان يتوسل بالرسل والشفعاء اليها ، وقد رآها مرة تلطم فى مأتم ، فقال فيها أبياته الجميلة الآتية :

يا قمراً أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
لا تبك ميتاً حل فى حفرة وابك قتيلا لك بالباب !

نعود الى تحليل حبه على ضوء العلم الحديث ، فنقول ان أول شروط الحب الكامل الاعجاب الكامل . أى ان تكون المحبوبة مثلا أعلى ، يخلع عليها الرجل من حلل خياله ما شاء ، وأبو نواس لم يكن يعجب الا بما يلمحه من معبودته وهى فى مأتم أو فى طريق ، فكان يستوقفه منها « الكثيب وغصن البان ، وعقرب الصدغ »

ولا نعرف عنها من شعره غير ذلك ، ولا نعلم الا انها ارسلت رسولا اليه بجواب لا يرضيه . وإلا أنها تسبه ، وإلا أنها تتجنى عليه ولا تسمح له حتى بنظرة ، والمسكينة لا تملك ذلك فهو يعترف بذلك فى ابياته عند المأتم حيث يقول :

أبرزه المأتم لى كارها برغم بواب وحجاب !

والواقع ان إعجابه بها كان من ناحية جمالها وقوامها وصباحتها فقط ولا نعلم شيئاً غير ذلك . وربما كان هو لا يعلم غير ذلك . والا لو استطاع ان يعلم لاخبرنا . ولكان شعره سجلا ظريفا لامرأة جميلة فاتنة . وما كانت تجرى به نفسها من مختلف العواطف . ولعله لو كان بينه وبينها صلة

أقوى مما نعرف لكان وحيها أبدع . ولسمعنا من ذلك الشاعر الممتاز شعراً لا يقل قوة عن شعره فى الخمر . ومن يدرى ربما صرفته الجارية الجميلة عن غرامه بغيرها

ينقلنا هـذا الى الشرط الثانى فى الحب . وهو أن يكون بين ذكر وأنثى . والغريب ان أبا نواس كان يرى المثل الاعلى فى المرأة ان تكون على شكل غلام ! فلتنظر مثلا الى الابيات التالية :

مذكرة مؤنثـة مهاة اذا برزت تشبهها الغلاما !

تعاف الماء والعسل المصفى وتشرب من فتوتها المداما

فالبيت الاول يدل على ان رأيه فى المرأة ان تكون كالغلام !

والثانى يدل على ان رأيه ان تكون المرأة شابة فتية قوية تسكر من خمر الشباب وتنتشى من ريعانه !

الآن نصل الى الشرط الثالث للحب الكامل ، وهو الاعتياد والاختلاط . وقد كان ذلك ممتنعا بالطبع فى العصر الاسلامى . وظل ممتنعاً كذلك بعده . ولعل هـذا هو السر فى ان الغزل فى الشعر الادبى ينقصه دائما الروح الحارة . واللوعة العميقة . التى تنشأ من حب مربوط برباط شديد من الالفة . ولقد كان شعر ابن ابى ربيعة سطحيا فى الغزل كذلك . فقد كان يرى النساء حقا ، ولكن لا يراهن الا خطفا . ولم تكن هناك امرأة واحدة ملهمة قوية يحدث بينه وبينها ما يلهمه الشعر العميق المتعدد الحوادث والصور !

هذا فيما يتعلق بحبه عن المرأة . والواقع ان شعره فى المرأة لا يزيد عن عشر ديوانه . فهو لم يكن يخصص لها جزءاً كبيراً من حياته . وانما كانت عنده حاجة جنسية كاى رجل آخر . وكان يشعر بها كأى رجل آخر . فلا يستطيع ان يشبع رغبته . فيطفىء هـذه الرغبة بالخمر واللهو . ويكتب فى المرأة شعراً مؤداه أنه محروم منها . وأنه معجب بجسمها وجمالها وانه يراها حسناء كالغلام

ورأيى ان ابا نواس لا يقل شاعرية عن أى شاعر غربى من الفحول . ولو واتته الظروف والبيئة . وألهمته المرأة لقرأنا له ليالى كوسيه ومأتميات كلامارتين . فانك لتقرأ له بين الوقت والآخر أبياتا تومض ايماض النجم العالى . ولكنها لا تلبث ان تنطفىء فى لجة التقليد وتغطى عليها أمواج القدم !

ابراهيم ناجى



أبو نواس السياسي

الدور الخطير الذي لعبه في الحياة السياسية

بقلم الأستاذ خيري سعيد

قبل الدخول فى موضوع هذا المقال ، ينبغى أن نعرض على القارىء صورة مصغرة من الحياة السياسية فى صدر الدولة العباسية ، لعهد هذا الشاعر

سن المنصور لورثته دستوراً تقيد به ونفذه من خلفه ، يتلخص فى اصطناع الموالى ، واذكاء البغضاء بين الفرس والعرب واضرام نار العصبية بين مضر واليمن ، والقضاء على احفاد على بن أبى طالب الذين ينافسون العباسيين على الخلافة . . وكان هوى الفرس مع الطالبين فى الباطن ومع العباسيين فى الظاهر . وقد اتهم جميع وزراء الفرس بالعمل على بيعة الطالبيين وقتل منهم بسبب ذلك أبو سلمة الخلال وزير ابراهيم الامام وقتل يعقوب بن داود وزير المهدى وقتل جعفر بن يحيي البرمكى وزير الرشيد ، وقتل الفضل بن سهل وزير المأمون

لقد أمل الفرس من الدعوة العباسية الانتقام من بنى أمية ، ثم الغدر بهذه الدولة الناشئة التى هم عمادها وسندها . وقدهم أبو مسلم الخراسانى بتنفيذ تلك الخطة بعد وفاة السفاح ، فرمته الاقدار بداهية الدواهى أبى جعفر المنصور ، فاحتال عليه حتى جاءه من خراسان فقتله

واذا كانت سياسة العباسيين تقوم على مبدأ « فرق تسد » فان سياسة الفرس قامت على انتهاز الفرصة وا كتساب القلوب بالمال واللفظ المعسول . وما زالوا يتلمسون سنوح الفرصة ، حتى أوشكت أن تلوح فى أخريات عهد الرشيد ، لكن الحزب العباسى فطن إلى المكيدة الرهيبة ، وحرض الرشيد على الايقاع بالبرامكة ، فنكبهم بين عشية وضحاها وأخذهم على غرة

وبرغم ذلك ، لم ييأس الفرس ، ووجدوا فى الخلاف الذى نشب بين الامين والمامون فرصتهم فانتهزوها وضربوا ضربتهم القاضية فسحقوا النفوذ العربى وضعضعوا هيبة الخلافة العربية والجأوا العباسيين إلى وقاية ملكهم بحرس من الاتراك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ولقد أخلص الترك للمعتصم والواثق ، ثم استبدوا فيما بعد بالفرس والعباسيين والعرب جميعاً

هذا مجمل الحياة السياسية فى صدر الدولة العباسية ، فاين كان أبو نواس من هذه الاعاصير ، وإلى أى حزب انضوى ، وما الدور الذى لعبه وكيف تسنى له أن يساهم فى الدسائس والمكايد وهو شاعر خليع ، ثم جاز للحزب العباسى أن يعتمد على مثله وسيرته مفضوحة وسلوكه مريب

شرح ذلك فيما يلى بايجاز اضطررنا معه إلى طرح الاسانيد :

أبو نواس من البصرة ، فارسى الاصل أضاف نفسه الى الموالى طائعاً مختاراً . وبعد أن كان يتنزر ويدعى للفرزدق (فجعل كنيته أبا فراس) مدح اليمانية وادعى انه من قبيلة « حاء وحكم » . فزجره يزيد بن منصور الحميرى خال الخليفة المهدى وقال له : «انت خوزى ، فما لك ولحاء وحكم؟» فقال له : « أنا مولى لهم »

فهو اذن من موالى البصرة والموالى يتعصبون للعباسيين لكنهم يؤثرون الوقوف على الحياد إلا اذا أكرهوا على النضال ، فحين ذاك ينحازون إلى الاقوى . قال محمد بن على بن عبد الله بن عباس صاحب الدعوة العباسية : « أما البصرة وسوادها فعثمانية ، تدين بالكف . تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » فهو اذن من أناس يصطفيهم العباسيون ويطمئنون إلى ولائهم تلك خصلة ، والخصلة الاخرى التى هيأت له مكاناً جليلا فى البلاط العباسى ذكرها فى قوله :

سأبغى الغنى اما جليس خليفة يقوم سواء ، أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه اذا نوه الزحفان باسم قتيل
لنخمس مال الله من كل فاجر أخى بطنة للطيبات أكول
ألم تر أن المال عون على الندى وليس جواد مقتر كبخيل

وقد وفق لان يكون جليس خليفة ، وأن يكون أيضاً من السفاحين (لكن بطريق غير مباشر هو التحريض والدس والوقيعة وتشويه السمعة ونشر الفضائح)

اتصل لدى مقدمه من الكوفة الى بغداد بأولاد المهدى ـ الهادى والرشيد ، ثم نادم القاسم بن هرون الرشيد فلم تعجبه عشرته ، فانتقل الى خدمة الامين فاصاب فيه أميراً مستهتراً فى خلواته

استخدم الحزب العباسى ـ وكان يتزعمه الربيع ، ثم الفضل ابنه من بعده ـ أبا نواس فى أغراضه السياسية . فمدح نزاراً وهجا اليمن . ثم مدح اليمن . ثم أهمل اليمن ونزاراً وأقبل على مدح أقطاب الحزب العباسى هرون الرشيد وولى عهده الامين ووزيره الفضل بن الربيع وبقية أقاربه . ولقد كان الشاعر فى ذلك الوقت يؤدى وظيفة الجريدة ، كان داعية تذاع قصائده على السنة الرواة

وقد قدمنا أن البرامكة لم يشذوا عن سياسة الفرس التقليدية . وهى استبدال العباسيين بالطالبيين ليسهل عليهم نقل السلطان اليهم . فاشترك فى الدس عليهم والوقيعة بهم . لانه اعتبر خطتهم موجهة ضده شخصيا ، إذ كان شاعر الخليفة وشاعر ولى العهد وله المكانة التى يحسد عليها فحرض عليهم صغار الشعرا كيما يمدحوهم بقصائد يصفونهم فيها بأوصاف تصلح لايغار صدر الرشيد عليهم ، من ذلك قول الشاعر فى هرون والبرامكة :

أضاف الى بيعة بيعة فقام بها جعفر دونه
بنو برمك أسسوا ملكه وشدوا لوارثه عقده

ومعنى هذه الابيات ان جعفراً وزير الرشيد قد شاركه فى الخلافة . لا بل هو الذى أسس له الملك والسلطان ، ولولاهم لما تمكن من تنصيب ولده الامين ولياً للعهد . . .

وما اكتفى أبو نواس بذلك . فانه كان يزين للمغنين أن يصنعوا فى بعض المقاطيع أصواتاً يتغنون بها فى مجلس أنس الرشيد . ويتحرى أن توافق ما يهمس به الفضل بن الربيع وأنصاره فى حق البرامكة وشرههم الى الاستئثار بالامر والنهى . فمن ذلك الصوت الذى غناه ابن جامع وهو :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحـدة   انما العاجز من لا يستبد

فقد قيل ان الرشيد غمغم وقال : نعم انما العاجز من لا يستبد . ونكب البرامكة ولما تخفت اصداء هذا الصوت فى شعاب نفسه الحائرة

وبعض أشعاره فيها تلميح بما اتهمت به البرامكة وقد أخفاها فى مدائحه للرشيد وليس يعجزك أن تفطن اليها إذا تلوتها على ضوء مانبهناك اليه

ثم ان أبا نواس كان يقوم بوظيفة الجاسوس على البرامكة ، ومن هنا تطوافه بالحانات وشغفه بالولائم والدعوات . إذ بتلك الوسيلة يستطيع أن يجمع الاخبار من العيون والارصاد الذين وضعهم الفضل بن الربيع على البرامكة . وبتلك الوسيلة يكسب الانصار ويفسد الخطط سراً من وراء ستار . وهذا ما فعله أمثاله فى جميع العصور . كالبارون « دى باتز » الذى عاش فى باريس متنكراً يتنقل هنا وهناك وتمكن من تسديد ضربات هدامة للثورة الفرنسية انتقاماً لسيده لويس السادس عشر ومولاته مارى انطوانيت

ولولا ضيق المقام لاتينا بالشواهد على ذلك . وكيفما كانت الحال . فان أبا نواس ، لم يمدح البرامكة الا رياء ليأمن شرهم ويفيد رفدهم . وقد استمالوه الى حزبهم فأبى لانه كان مكيناً فى حزب العباسيين أثيراً عند زعمائه

ولما نكب البرامكة لم يرثهم ويقال ان ما ينسب اليه من ذلك مدخول عليه

ويمكن اعتبار أبى نواس — بلغة عصرنا — وزيراً للدعاية كالدكتور جوبلز فى المانيا والكونت شيانو فى ايطاليا ، على اختلاف الوسائل والازمان . فلقد كان ينظم القصائد ويوحى للشعراء ان ينظموا على غراره فى الموضوعات التى يراها أنفع لتأييد حزبه . وقد أفادت دعايته ضد المأمون ولمصلحة الامين . فحببت الاخير الى البغداديين والعرب وأهل الكوفة والبصرة ومصر . ولولا خرق قائده « على بن عيسى بن ماهان » واستهتاره بقائد المأمون طاهر بن الحسين ، لانتصر الامين واندحر أخوه . وعلى ذلك يكون أبو نواس قد نجح فى حياته السياسية نجاحاً عظيما . وكيف لا ينجح وقد امتنع عن شرب الخمر كى لا تضعف دعايته . والخمر كانت روحه وأنسه وبهجة حياته ؟ !

احمد خيري سعيد